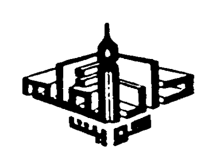
د. محمد عبد الله دراز

الصوم تربية وجهاد

تقديم الشيخ
حسنين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية رحمه الله

تحقيق الشيخ
أحمد مصطفي فضلية
شيخ معهد محلة دياي الأزهري

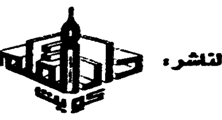


بسم الله الرحمن الرحيم

الصوم تربية وجهاد

الطبعة الأولى للناشر
الطبعة الثالثة للكتاب
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

ملتزم التوزيع : 
دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني – ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب – القاهرة
تليفاكس / ٧٩٥١١٠٥ – محمول : ٠١٠١٤٦٦٩٠٤٥

الناشر : 
دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

نور من القرآن الكريم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

[سورة البقرة : ١٨٣-١٨٥]



الإهداء

إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ...
الذين يصومون رمضان لعلهم ينتفعون ...
وإلى الذين لا يصومون لعلهم يهتدون ...



تقديم

بقلم فضيلة الشيخ / حسنين مخلوف [1]

مفتي الديار المصرية رحمه الله (١٨٩٠م-١٩٩٠م)

رحم الله الدكتور محمد عبد الله دراز . أخى ، الذي طالما تمتعت بأخوته فكان مثالاً للأخوة الصادقة التي هي جديرة بكل إعتزاز ..

والعالم الفذ الذي كان يجمع مع العلم الموثوق به السجايا الحميدة والأخلاق الفاضلة ، والرجولة الكاملة ، والشجاعة الأدبية النادرة ..

والإنسان المثالي ، الذي كان رقيق العاطفة نبيل الإحساس ، لطيف الشعور ، وكان مثالاً للهدوء في إباء ، وللسكينة في تواضع ، وللحياء في أدب جم ..

والمسلم العامل ، الذي كان يعمل للإسلام في صمت، ويبذل في سبيله الكثير

---

(١) ولد رحمه الله يوم السبت ٦ مايو سنة ١٨٩٠م (بباب الفتوح بالقاهرة) ، حفظ القرآن الكريم بالأزهر الشريف وتلقى دروسه على يد كبار علماء الأزهر من أمثال الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي – والشيخ عبد الله دراز – والشيخ يوسف الدجوي وغيرهم من علماء الأزهر الأعلام .

نال شهادة العالمية بتفوق سنة ١٩١٤م .

عين قاضياً بالمحاكم الشرعية ١٩١٦م .

عين مفتياً للديار المصرية سنة ١٩٤٥م .

وظل يعطيه وقته وفكره إلى أن انتهت مدة خدمته القانونية في ٥ مايو سنة ١٩٥٠م .

كان عضواً في جماعة كبار العلماء منذ ١٩٤٠م .

ألف تفسيره للقرآن الكريم (صفوة البيان لمعاني القرآن)والمواريث في الشريعة الإسلامية وكتاب الفتاوى (جزآن) .

رحم الله الشيخ الذي رحل عن عالمنا في ١٩ رمضان سنة ١٤١٠هـ الموافق ١٥ إبريل من عام ١٩٩٠م .

رحل وقد عرفه العلماء بدماثة الأخلاق وكرم الصفات وكثرة المجاملات وتعدد العلاقات في كل أرجاء العالم الإسلامي .

من وقته وصحته وراحته ، غير ضان ولا متخلف ولا وهن .. وحسبه أنه مات غريباً في سبيل الإسلام فنال الشهادة التي كان جديراً بها وأهلاً لها .

رحمه الله ، لقد كانت الرابطة التي بيني وبينه عميقة الجذور، كان المغفور له والدى شيخا لوالده المغفور له، وكلاهما كان من الأعلام الأفذاذ، وكان والده شيخا لى، لقيت من عطفه وحدبه مايلقى كل ابن عزيز من أب كريم.

رحم الله الدكتور محمد عبد الله دراز..

لقد ترك مكانه شاغراً بين العلماء وليس من اليسر إشغاله .

وكنت أرجو أن أقدم لكتابة هذا وهو حي يرزق بيننا ولكنه قضاء الله الذي لا يرد وقدره الذي لا يوقف ولايؤجل.

وكتابات الدكتور – رحمه الله – مما لا تحتاج إلى تزكية فهي تزكى نفسها بنفسها وبحوثه القيمة في الصوم وشهر الصوم، بحوث تحليلية عميقة ممتعة في أسلوبها .

أجل ...

لقد أقبل شهر رمضان بيمنه وبركته وأقبل عليه المسلمون بقلوب فرحة مستبشرة يصومون نهاره ويقومون ليله تعبداً لله سبحانه وترحيباً للمغفرة والرضوان والإفضال والإحسان ويرتلون فيه آيات القرآن إستهداء بنوره وإستجلاء لأسراره واتعاظا بقصصه وأمثاله وتدبراً لحِكمه وأحكامه. تزكية للنفوس وتنويراً للبصائر وتوسلاً إلى السعادة الحقة التي ينشدها الأريب الحكيم وتقوية للجانب الروحى في هيكل الإنسان الذي أبدع الله خلقه وأحكم صنعه فجعله مادة تعتلج فيها شتى الطبائع وتصطبغ بأنواع الخير والشر وسلك فيه روحاً من أمره هي سر الحياة ومظهر الوجود وهي حقيقة الإنسان وجوهره وهي المخاطبة بالأمر والنهي والحث والزجر والترغيب والترهيب، وهي التي تبقى إذا مات الإنسان ساعة في عوالمها متنقلة في آفاقها حتى يقضى الله في أمرها وتعود إلى الإنسان النشأة الأخرى للجزاء والحساب والله على كل شئ قدير . فتنعم بالقرار في جنة الخلود إذا كسبت خيراً في الدنيا وعملت صالحاً فيها، وتشقى بالعذاب الخالد في النار

إذا اكتسبت خيراً في الدنيا ولم تبال وعيد الإله القادر .

وما أعد لعصاة عباده من نكال كما جاء في شرائعه على لسان رسله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [(١)] ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [(٢)].

للروح الإنساني قوة وسلطان وللمادة آثار وطبائع، وبينهما تفاعل وتدافع وقلما يتكافآن ، ومثلهما في الإنسان مثل كفتي الميزان إذا شالت إحداهما هبطت الأخرى، فإذا قويت الروح رقت حجب المادة وخفت كثافتها وضعفت آثارها فيسمو الإنسان في تفكيره ومداركه وتتسع لبصيرته آفاق المعرفة وتتفتح له أكمام العلوم وتستعد لفيض الكمال وإشراق الهداية ، ويكون إلى الخير أميل وإلى الصلاح أقرب . وينعكس الأمر إذا طغت المادة على الروح فيبدو الميل إلى الشر والطغيان وتبدو الأثرة والأنانية ويكون في طبائعه أقرب إلى الحيوان .

وأعظم معوان على تقوية جانب الروح الإنساني صيام شهر رمضان حسبما شرعه الله تعالى فهو رياضة له وسبيل إلى صفائه وتخفف من أثقال المادة وعوائقها وتربية لقوة الإرادة وملكة الصبر والإحتمال ووقاية من الإندفاع في تيار الشهوات والتردى في مهاوى المحرمات وجُنّة من العذاب يوم الحساب .. وهذا هو المشار إليه بقوله ﷺ : "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين"[(٣)] وهو قول بليغ وتمثيل بديع يتذوق معناه أهل الفقه واللسان.

فما كان رمضان من حيث زمن من الأزمان موجباً لتفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران وتصفد الشياطين أعداء الإنسان .

وما كان كل صوم فيه قهر للنفس عن شهوة الطعام والشراب واللذة البشرية مقتضياً لذلك وداعياً اليه، وإنما المقتضى له نوع خاص من الصيام وهو ما يكون

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان رقم ٧ ، ٨ .

(٢) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم ١٨٥ .

(٣) رواه الإمام مسلم ، كتاب الصيام – باب فضل شهر رمضان .

على الوجه الذي شرعه الله تعالى ومايؤدى كما أداه الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وهو الأسوة الحسنة.

هو الصيام الذي ليس مجرد حبس للنفس عن الشهوات وإنما يصحبه إخلاص نية العبادة لله عز وجل وأداء الطاعات من الفرائض والنوافل وإجتناب المنكرات والمآثم وتوجه القلب إلى الخير والبر بالناس والعمل بهما والدعوة إليهما ومحاسبة النفس على كل ما تأتي وما تذر من الأعمال كحساب التاجر الحاذق الذي لا ينام ليله حتى يصفي عمل نهاره ليعرف ما كسب من ربح وما أصابه من خسران فيجد وينشط في تحصيل موارد الربح وتجنب أسباب الخسران .

إذا كان الصوم على هذه الشاكلة كانت النفس بمنجاة من عظائم الشُرور والهواجس وفي حصانة من أكثر الخطرات والوساوس آمنة من كيد الشيطان واحتماله مطمئنة إلى توفيق الله وحفظه حتى إذا جاء يوم الجزاء فتحت للصائم أبواب الجنة ودعي للدخول من باب يختص بالصائمين لا يدخل منه سواهم كما جاء في حديث سهل بن سعد عن النبى ﷺ قال :

"إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم يقال: أين الصائمون فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد"[1].

ولا يخل بهذه الحكم التي رتبها الشارع على الصيام ما نراه من تخلفها في كثير من الصائمين لأن صومهم في الواقع ليس إلا مجرد جوع وظمأ لم يتسرب إلى قرارة النفوس ولم يمازج شِغاف القُلوب ولم يتركوا فيه مع هذا الحرمان المآثم والشهوات بل ظلوا في ذلك على ما كانوا عليه قبل الصيام فكان صومهم آليا محضاً وهو إن سقط به الفرض لم يرق إلى مرتبة الكمال التي رتب عليها الشارع هذه الحكم .

(١) رواه الإمام البخاري ، كتاب الصوم - باب الريان للصائمين .

إخواني المسلمين :

ليس بالعسير عليكم أن تتخذوا هذا الشهر شهر تبتل وإحسان فتخلصوا لله في العبادة وتطعموا الطعام وتصلوا الأرحام وتدعوا الخصام وفُحش الكلام وتنتهزوا فرصة للأعمال الصالحات ومحاسبة النفس على السيئات حتى إذا إعتدتم ذلك في أيامه ولياليه وتذوقتم حلاوة الطاعة فيه لم ترضوا عنه بديلاً ولم تجدوا عنها محيدا فيما بعد من الأيام ، وعند ذلك تسعدون أفراداً وجماعات بحياة صالحة طيبة ومجتمع طاهر نقي من الشوائب سليم من الرذائل .

كونوا في هذا الشهر رسل فضيلة ودُعاة إصلاح وقواما على أبنائكم وفتياتكم ورجالكم ونسائكم تحثونهم على الخير وأسبابه وتمنعونهم من الشر ودواعيه وتنصرون دينكم :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [1] .

لقد أظلنا هذا الشهر الكريم بما له من فضائل على سائر الشهور وما فيه من خير يترادف على تعاقب الدهور فحق علينا أن نستقبله بمزيد من الإبتهاج والسرور وأن نتلاقى على إخلاصٍ وصفاء ونتواصل على حبٍ وولاء ، ونتعاون على البر والتقوى ونستمسك بالعروة الوثقى فقد ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾[2] .

فأخرج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العرفان وهداهم إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم وأقام من آياته البينات أعلام هدى لا يضل من بها إسترشد، وعليها إعتمد وفرق بين الحق والباطل فوضح النهج واستقام السبيل ولم يبق لأحد حجة بعد التبصرة والبيان .

جاء القرآن بالتوحيد عقيدة فدحض الشرك ومحا آثاره ودعا إلى إخلاص

---

(١) سورة محمد : الآية رقم (٧) .

(٢) سورة البقرة: الآية رقم (١٨٥) .

العبادة ﴿ ... فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، ألا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... ﴾ [1] .

وجاء بالتوحيد عملا فشرع للمسلمين صلاة الجماعة وفضلها على صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة وشرع صلاة الجمعة وصلاة العيدين وأمرهم أن يولوا وجوههم في العبادة شطر المسجد الحرام وشرع لهم حج البيت المعظم لمن إستطاع إليه سبيلا ليتوجه المسلمون جميعا بقلوبٍ متحدة في العقيدة والشعور إلى قبلةٍ واحدة في عبادة إله واحد لا شريك له .

وشرع لهم الصيام في شهرٍ واحد من أشهر السنة ففرضه عليهم برؤية هلاله ليؤدى المسلمون في أقطار المعمورة هذه العبادة لله تعالى في وقت واحد برؤية قمرٍ واحد في السماء.

وبجانب ذلك محا القرآن الكريم الفوارق الجنسية بين شعوب الإسلام وأقام بدلها أخوةً رحيمة بين جميع أفراده فالمسلم أخو المسلم مهما شط المزار وتناءت الديار واختلفت اللغات والألوان والأجناس قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[2] وقال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[3] وجعل أوطان المسلمين – مهما نأى بعضها عن بعض – وطناً واحداً فكان المسلمون جميعا أمة واحدة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [4].

ولهذه الوحدة في العقيدة والعبادة والتشريع آثاره في التعاون والتآزر والتواصل والتراحم حتى يكون المسلمون كأفراد أسرة واحدة تجمعها آصرة القُربى وصلة الرحم، أو كالبنيان المرصوص الذي لا يقوم إلا على تماسك البناء أو كالجسد الواحد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، دعا القرآن إلى ذلك في غير آية وبثه في تعاليمه وحذر المسلمين من الفُرقة وأنذرهم عاقبة

---

(١) سورة الزمر : الآية رقم ٢،٣ .

(٢) سورة الحجرات : الآية رقم ١٠ .

(٣) سورة الحجرات: الآية رقم ١٣ .

(٤) سورة الأنبياء: الآية رقم ٩٢ .

التخاذل فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [1] .

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [2] .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [3] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [4] .

فماذا عسانا أن نقول وقد عصفت بنا ريح الفُرقة وتفرقت بنا الأهـواء في بحر لُجيّ من الفتن والشهوات والمطـامع والغرور ، والعدو يترصدنا ويتربص دوائر السوء بنا ويتخذ من تفرقنا قوة ومن تخاذلنا عدة ليستعين علينا بنا ؟

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [5] .

وأن يحاسبوا ضمائرهم على ما بدر منهم ويراقبوا الله في الأمانـة التي حملهـم إياها ليؤدوها لأعقابهم كما نقلوها عن أسلافهم ويبسطوا آيات القرآن بين أيديهـم ليظفروا منها بما يهديهم ويعيـد للإسـلام مجده وللمسـلمين عزهـم ويتلاقوا بعد الشقاق على وفاق وبعد الإختلاف على إتحاد وبعد الجفاء على صفاء ؟

ذلك ما نرجوه ويرجوه المسلمون كافة ونرجو أن يكون فاتحة خير في شهر القرآن وأن يكون التعبد بتلاوته فيه مقروناً بالعمل بما فيه،وكما فضل هـذا الشـهر بنزول القرآن إختصه الله بفضـل آخر فخصصه بفضـل الصيـام، والصـوم حبس للنفس عن الشهوات وقهر لها على ترك المألوفات ورياضة روحية تضعف حدتها وتكسر شرتها فيحدث لها نور وإشراق تجتلى به ما وراء الحجب من معان وعلـوم وما كان عزيز المنال فيكون للنفس من آلات الإدراك والحس البـاطن مثل مالهـا من الحواس الظاهرة ويقرب لك ذلك ما تجده من نفسك حين تصفو وتتدرج عـن الشواغل من فهمٍ لامح وإدراكٍ خاطف بما يلقى عليك من القول عكـس مـا تجـده

---

(١) سورة آل عمران: الآية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال: الآية رقم ٤٦ .

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ١٠٥ .

(٤) سورة الأنعام: الآية رقم ١٥٩ .

(٥) سورة الحديد: الآية رقم ١٦ .

حين ترزح تحت أعباء الكد والهموم من ركود القريحة وبطء العلم وضعف الإدراك .

فكانت هذه الرياضة ضرورية للإنسان حينا بعد حين لا مندوحة له عنها تقوية لجانب الروح فيه ومن ثمرتها تنمية ملكة الصبر لإعتياده تحمل الشاق والمكاره وإذكاؤه قوة الإدراك والعزيمة فيه لصبره ، وجلده حتى إذا ما اعتزم أمراً خطيراً لم يثنه عنه صارف واستدرار عاطفة الخير والإحسان لشعوره بألم الحرمان وقت الصيام مما تشتهيه نفسه فيدرك آلام المحرومين وأوصاب المحزونين فيبسط لهم يديه بالعطاء وقد كان رسول الله ﷺ وهو أجود الناس أجود ما يكون في رمضان وكان كالريح المرسلة جوداً ونائلاً .

هذه حكمة الصيام التي من أجلها شاع ، وهذه فضائله ومزاياه فإذا لم يجد أحدنا لصيامه أثراً في تزكية نفسه وصفاتها وفي سموها وإشراقها وفي الخشوع لله والخوف منه والإقبال على البذل والجود فما ذلك إلا لأن صومه مجرد لا صلة له بنفسه ولا أثر له في حسه .

والصوم المشروع جهاد مع النفس ، وجلاد وصبر وقهر ورياضة وعلاج .

أرأيت لو كنت مريضاً فوصف لك الطبيب دواء ونهاك عن بعض المآكل والمشارب التي تزيد العلة ثم أخذت الدواء كما وصف ولكنك أقبلت تلتهم ما نهاك عنه من طعام وشراب هل ينتظر لك الشفاء بأخذ هذا الدواء ؟

ونسأل الله أن يوفقنا في هذا الشهر المعظم لرشده ويحول بيننا وبين محارمه ويجعل لنا من الصوم جُنّة والعمل الصالح فيه قربة وهو وحده المستعان ؟

مقدمة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه .

وبعد،

فمن فضل الله العظيم عليّ . أن سخرني للبحث والتنقيب عن تراث الإمام العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله. على قلة بضاعتي وضعف إمكاناتي ولكن إرادة الله التي جعلت لكل شئ سببًا كانت نورًا وضياءً على الطريق. تمثل هذا النور والضياء في أن يسر الله لي لقاء علماء أفاضل عرفوا قدر الشيخ وتأثروا به منهم الأستاذ الدكتور/ عبد الستار فتح الله سعيد الذي قال لي في أول لقاء به : يابني إنك في مهمة تسخير لا مهمة تخيير ، والأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعني الذي شجعني وقال لي [إن الدكتور دراز لم يأخذ حقه من إعلامنا لأنه الأزهري الوحيد الذي استطاع أن يهزم العلمانية في عقر دارها باريس] .

كما شجعني أبناء الشيخ وفتحوا لي مكتبة والدهم ، أخص منهم السفير فتحي دراز والدكتور سعيد دراز جزاهم الله خيرا.

ومنذ عام ١٩٨٧م وضعت قدمي في أول الطريق ونزلت هذا البحر الزاخر الذي لا ساحل له. واليوم أدركت أنني كالبحار الذي جمع الكنوز من الدرر والجواهر. ولم يبق إلا تقديمها وعرضها على الناس.

وقد وفق الله وأعان فانتهيت من إعداد تراث الشيخ المخطوط والمتناثر ، في بطون المجلات للطبع ونشره.[١]

ويقع في خمسة كتب :

١- حصاد قلم - جمعت فيه البحوث المخطوطة والمقالات المطبوعة في أمهات الصحف والمجلات الإسلامية في حياة الشيخ رحمه الله .

٢- زاد المسلم - جمعت فيه أحاديث الشيخ الإذاعية المخطوط منها والذي سبق نشره في رسائل أو كتب .

---

(١) ستوالى نشره دار القلم بالكويت حفظها الله للإسلام .

٣- رسائل لها تاريخ - جمعت فيه رسائل الشيخ لإخوانه العلماء وتلاميذه وكتاب عصره ورسائلهم جميعا إليه.

٤- حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن. دراسة لأطروحته العلمية. التي نال بها درجة دكتوراة الدولة من السوربون من خلال أوراق الشيخ الخاصة .

٥- محمد عبد الله دراز سيرة وفكرة - دراسة شاملة لحياته وفكره .

أما الكتاب الذي نقدمه للقراء اليوم (الصوم تربية وجهاد) فهو يتسم بالعمق وإصابة الهدف. فهو يحدثنا عن الصوم كمدرسة للتربية وميدان للجهاد .. جهاد النفس، وهو مجموعة من البحوث التحليلية الممتعة، التي لا غنى لمثقفٍ عنها .

وقد طبع الكتاب طبعته الأولى في رمضان ١٣٧٧هـ مارس ١٩٥٨م وطبعته الثانية في شعبان ١٤١٧هـ ديسمبر ١٩٩٦م.

ولازال جمهور المسلمين يتطلع إلى مثل هذه الكتب التي ستظل إلى الأبد مدرسة تتلمذ عليها الطليعة من الشباب المسلم في كل مكان وزمان. لأن كتب الدكتور / محمد عبد الله دراز كما يقول شيخنا وأستاذنا الدكتور / عبد العظيم المطعني ، لم تكتب لجيل واحد ولا لعصر واحد ، بل هي مادة حية متجددة لكل الأجيال والعصور ، وقارئ هذا الكتاب وغيره من آثار الدكتور دراز بوعي وإجادة، لن يسعه إلا أن يوافقنا على هذا القول"(١) .

ويقول أعزه الله "وأمر آخر يجذبك إلى مؤلفاته - ومنها هذا الكتاب - ذلك الأمر هو شعور يعتريك بأن المؤلف - رحمه الله - كان يعبر عن فهمك أنت، ويعرض أفكارك أنت ويبث أحاسيسك أنت ، ويقرر ما تقرره أنت"(٢).

ولم يكن الدكتور دراز بهذا فلتة من فلتات العصر بل كان معه الكثيرون من العلماء الأمناء على تبيلغ رسالة الإسلام ومن الغيورين عليها . ممن وفقهم الله لكي ينفوا عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين

---

(١)(٢) أنظر مقدمته لكتاب [دراسات إسلامية] للدكتور محمد عبد الله دراز تحقيق كاتب هذه السطور. نشر دار القلم بالكويت .

ووقفوا حياتهم للدعوة إلى هـذا الدين لتزكية النفوس، وتطهير الأرواح وتجديد الصلة بوب الأرض والسماء .

وقد جاءت أحاديث الصيام في هذا الكتاب لتحقيق هذا الهدف المنشود .

وأسجل هنا نموذج من الرسائل الكثيرة التي تؤكد نجاح الدكتور دراز في أحاديثه الإذاعية عن رمضان والصيام وهي رسالة كتبها عالم جليل من علماء الأزهر فضيلة الأستاذ "توفيق محمد سبع"[1] وكان في ذلك الوقت عام ١٩٥٧م مدرساً بمعهد طنطا الأحمدي .

وإلى القارئ نص الرسالة.

---

(١) – فضيلة الشيخ توفيق محمد سبع من مواليد بلدة (الهياتم) مركز المحلة الكبرى – محافظة الغربية عام ١٩٢٣م .

درس علومه في المعاهد الدينية الأزهرية ، وقضى مدة دراسته الإبتدائية والثانوية بمعهد طنطا حيث حصل على الشهادة الثانوية عام ١٩٤٦ وكان ترتيبه الأول فيها على جميع المعاهد .

حصل على الشهادة العالية من كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر عام١٩٥٠م وكان ترتيبه الأول على دفعته .

حصل على الشهادة العالمية مع إجازة التدريس من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر عام ١٩٥٢م . وكان ترتيبه الأول .

سافر إلى سوريا والصومال مبعوثاً عن الأزهر الشريف ، ثم إلى المملكة العربية السعودية – حيث عمل أستاذاً في كلية اللغة العربية هناك .

كان له محاضرات كثيرة وإذاعات ومقالات ومجالات نشاط واسعة ..

له كثير من المؤلفات ومنها :

(المجاهدون في الله) .

(نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني) جزءان .

(هكذا نصوم) .

(قيم حضارية في القرآن الكريم) جزءان .

(الدين والحرب النفسية) .

(تنظيم الأسرة في الإسلام) .

(أضواء على الهجرة) .

(واقعية المنهج القرآني) .

بسم الله الرحمن الرحيم

طنطا في ١٩٥٧/٤/٤م

أستاذنا الجليل فضيلة الدكتور الأستاذ / محمد عبد الله دراز .

تحية طيبة تنقل إليك مشاعر القلوب التي تحبك وتجلك وتؤثرك وتؤمن بقلمك.

أرجو أولا أن تتقبل تهنئتنا الطيبة الكريمة بشهر الصيام المبارك أعاده الله عليكم وعلى الأمة الإسلامية باليمن والإسعاد. ونحب أن ننقل إليكم أملا طالما خفقت به القلوب وهو أن تتكرموا بمناسبة رمضان - بتتابع نشر الأحاديث الدينية الكريمة التي تطلعون بها على هذه الأمة الحائرة فتتيحون لها أمناً هادئاً، وسلاماً مطمئناً، وتشيعون في هذا المجتمع جوا صالحا من الروحية المشرقة تنمو فيه الفضائل وتزدهر القيم وتتركز دعائم الأخلاق..

سيدي :

لا أريد أن أسترسل في الثناء على أسلوبكم الرفيع في معالجة الموضوعات الدينية، وإنما أترك ذلك لله ، وحسبكم أن أحاديثكم بالمذياع، وبالصحف، هي المشرق الهادي لقلوبنا، والغذاء الروحي لمشاعرنا وعواطفنا ، والمادة الأدبية لفننا ، وحسبكم أن صفوة العلماء والمفكرين ينتظرون كلامكم بفارغ الصبر ونازع الشوق، ويعتدون بهذا الضرب الناصع من التفكير، وذاك السمت العبقري من التعبير، وتلك الجلالة الرائعة في العرض والتصوير ..

إن أفقكم الفسيح ، وثقافتكم الجامعة ، ومقدرتكم الفذة على الكتابة، تجعلنا نطمئن إلى أن مصر مازالت بخير، ومازالت تحتفظ بالصفوة الممتازة من رجال العلم والأدب وفلاسفة الأخلاق والاجتماع ..فطب نفساً يا سيدي واطمئن خاطراً، وحاول أن تفيض علينا من إشراق روحك وصفاء نفسك ونصاعة قلمك فإن أدبك

وعلمك مدرسة لنا ونمط من الأدب الرشيد نعتز به على مر الأيام . حفظك الله ذُخراً للعلم والفضل . ومعذرةً معذرة فإن من حق أبنائك عليك أن يلاحقوك بالطلب كلما حاولت الهرب.

والسلام ،

تلميذ معجب بعلمكم

توفيق محمد سبع

مدرس بمعهد طنطا

وبعد،

فهذا نموذج واحد أسوقه هنا للقارئ دليلاً على أهمية الكتاب الذي بين يديه. وقد قمت في هذه الطبعة بإعادة تبويب الكتاب إلى فصول. وأضفت إليه حلقة (فاكهة المجالس الغيبة) في سياقها ولم تكن موجودة في الطبعات السابقة وخرجت الآيات والأحاديث والآثار الواردة في الكتاب وكتبت ترجمة مختصرة للشيخ رحمه الله. فإن وفقت في خدمة هذا الكتاب فلله الحمد والفضل والمنة . وإن كانت الأخرى فحسبي أني حاولت في حدود إمكاناتي وقدراتي المتواضعة .

والله أسأل أن يجعل هذا الجهد في ميزان أعمالي ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو الله

أبو عبد الرحمن

أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية

محلة دياي – دسوق – كفر الشيخ

(١) سورة الشعراء الآيتان رقم ٨٨ ، ٨٩ .



سيرة في سطور

١- **الاسم** : الدكتور محمد عبد الله دراز

٢- **تاريخ الميلاد** : ١٨٩٤/١١/٨م

٣- **مهبط الميلاد** : ولد في أواخر ١٨٩٤م بمحلة دياي مركز دسوق محافظة كفر الشيخ وبها قضى عهد طفولته وصباه في تعلم مبادئ العلوم الأولية وحفظ القرآن الكريم حتى أتم حفظه وتجويده وهو دون العشر سنين

٤- **المدارس التي تعلم بها** : الأزهر - السوربون

٥- انتقل إلى الإسكندرية في أوائل ١٩٠٥م حيث إلتحق بمعهدها الناشئ (في معية المرحوم والده الذي كان وقع عليه إختيار أستاذه الإمام محمد عبده لتأسيس الدراسة الأزهرية النظامية في الثغر السكندرى) .

٦- حصل على شهادة العالمية النظامية بامتياز في ١٩١٦م وكان أول الناجحين في الاختبار المشترك بين المعاهد .

٧- عين مدرسا بمعهد الإسكندرية ١٩١٦م عقب تخرجه وفي الوقت نفسه بدأ يشتغل بتعلم اللغة الفرنسية في المدارس الليلية حتى نال شهادة القسم العالى فيها ١٩١٩م وكان ترتيبه الأول فيها أيضا ولقد أفاد من معرفته باللغة الفرنسية في الدفاع عن القضية الوطنية أمام السفارات الأجنبية ١٩١٩م وفي الدفاع عن الحقائق الإسلامية بالرد على جريدة (الطان) الفرنسية وغيرها.

٨- انتقل إلى القاهرة في ١٩٢٨م حيث إختاره المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغى شيخ الأزهر للتدريس في القسم العالى بالأزهر عام ١٩٢٨م ثم في قسم التخصص عام ١٩٢٩م ثم في الكليات الأزهرية الناشئة ١٩٣٠م مع شقيقه الشيخ عبد المجيد عبد الله دراز حيث أختير الأخير أستاذاً للتفسير بكلية الشريعة .

٩- وفي أول ١٩٣٦م سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وفي مايو من

نفس العام سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية للدراسات الجامعية فالتحق بكلية الآداب بجامعة السوربون وحصل على الليسانس عام ١٩٤٠م .

١٠- نال دكتوراة الدولة من السوربون برتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٧م وكل الذين زاروا باريس في الفترة من قبل الحرب العالمية إلى ما بعد إنتهائها يعرفون مبلغ الأستاذ هنالك.

والى جانب دراسته إهتم بالوفود والجاليات العربية والإسلامية ومدى عنايته الجدية بقضايا الإسلام والعروبة من فلسطين إلى الجزائر ومراكش.

١١- الدرجات العلمية وتاريخها :

أ- العالمية من الأزهر الشريف يولية ١٩١٦م

ب- دكتوراة الدولة في الآداب من فرنسا ديسمبر ١٩٤٧م

ج- عضوية جماعة كبار العلماء نوفمبر ١٩٤٩م

١٢- اللغات التي يتكلم بها : اللغة العربية واللغة الفرنسية .

١٣- عاد إلى مصر عام ١٩٤٨م فحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في ١٩٤٩م وندب لتدريس تاريخ الأديان بكلية الآداب جامعة القاهرة ثم لتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية ثم لتدريس التفسير في كلية دار العلوم وتفسير القرآن الكريم بكلية اللغة العربية .

١٤- الوظائف والأعمال التي إشتغل بها :

أ- التدريس بالأزهر وجامعة القاهرة وكلية البوليس .

ب- عضوية اللجنة الإستشارية بالأزهر .

ج- مراقبة الإمتحانات العامة بالأزهر .

هـ- عضوية اللجنة العليا لسياسة التعليم بوزارة التربية والتعليم .

و- مندوب الأزهر في المؤتمرات الدولية العلمية والدينية (مؤتمر الأديان العالمي في باريس ١٩٣٩م - مؤتمر الشريعة في باريس ١٩٥٠م - مؤتمر الجامعات في مدينة نيس بفرنسا ١٩٥١م - مؤتمر لاهور بباكستان ١٩٥٨م) .

١٥- آخر وظيفة شغلها أستاذا بكلية اللغة العربية.

١٦- **الهوايات** : هوايته التي لازمته منذ عهد شبابه الرياضة البدنية بمختلف أنواعها وقد إحتفظ منها ببضع دقائق من التمرينات الصباحية وساعة في السير على قدميه في صباح كل يوم بالإضافة إلى هوايته الأساسية في المطالعة والبحث

١٧- المؤلفات المطبوعة :

أ- باللغة العربية : النبأ العظيم [مقدمة لتفسير القرآن الكريم] المختار من كنوز السنة - الميزان بين السنة والبدعة - الدين [مقدمة لتاريخ الأديان] - كلمات في مبادئ فلسفة الأخلاق - دراسات إسلامية - الصوم تربية وجهاد - حصاد قلم - زاد المسلم في الدين والحياة - رسائل لها تاريخ . بالإضافة إلى البحوث الكثيرة في المجلات العربية.

ب- باللغة الفرنسية : تعريف بالقرآن - دستور الأخلاق في القرآن وقد تمت ترجمتهما إلى اللغة العربية حيث ترجم المدخل إلى القرآن الكريم الأستاذ محمد عبد العظيم على . وترجم دستور الأخلاق في القرآن الكريم د . عبد الصبور شاهين. إضافة إلى بحوث كثيرة في المجلات المصرية والفرنسية.

كما نذكر به من البحوث القيمة باللغتين معاً (مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام - الربا في نظر القانون الإسلامي) .

ويمتاز إنتاجه الفكري بعمق الفكرة وقوة الحجة ومتانة الأسلوب

١٨- النشاط السياسي والإجتماعي :

لم ينتم يوماً ما إلى حزب من الأحزاب وليس من أعضاء الحزبية وإنما يشارك مشاركة عملية في الحركات القومية منذ ١٩١٩م لا يحب الإعلان عن نفسه ولكنه يفضي بمشورته الخالصة في كل العهود إلى المسئولين (مباشرة أو بواسطة) ولا سيما في الحالات العامة التي تتصل بالدين والأخلاق

١٩- المواقف الهامة : من أهمها :

أ- قيامه في مقدمة النخبة المختارة من المثقفين للإتصال بالسفارات والقنصليات الأجنبية في ثورة ١٩١٨ - ١٩١٩ وخطابه الحماسي

باللغة الفرنسية أمام قنصل فرنسا بالاسكندرية .

ب- تقدمه إلى رئيس الديوان الملكي في ١٩ يونيو ١٩٥٢ شارحاً له سوء الحالة العامة وتحول القدوة الحسنة التي كانت للملك قديما إلى قدوة غير صالحة ورجا تصحيح هذه الأوضاع.

ج- في فرنسا موقفه في الدفاع عن زملائه المصريين الذين إعتقلهم الألمان في عام ١٩٤٠ وكان الإنذار بالإعتقال سارياً على المصريين جميعا فلم يمنعه ذلك من الإحتجاج ومقابلة الرؤساء العسكريين بنفسه مراراً حتى أفرج عن المعتقلين جميعا.

٢٠- وفاته :

ظل الدكتور دراز في نشاطاته في خدمة الإسلام عاملاً مجاهداً حتى وافاه الأجل المحتوم في مؤتمر لاهور بباكستان في ٦ يناير ١٩٥٨م فبكاه العالم الإسلامي وبكاه الأزهر الشريف عالماً عاملاً وفيلسوفاً كبيراً ومصلحاً دينياً علمياً. رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له المثوبة في دار الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

٢١- ثناء العلماء عليه :

١- حضرة صاحب الفضيلة والفضل الأستاذ الجليل الشيخ / محمد عبد الله دراز .

يعلم الله ويعرف الأستاذ مقدار ما يكنه قلبي له من المحبة والإجلال ولعله يعرف أيضاً ما أعلقه على وجوده ومواهبه من عظيم الآمال ، آمال للدين ، آمال للعلم ، آمال للأخلاق ، آمال للأزهر ، آمال للأمة [1] .

الشيخ العلامة

إبراهيم الجبالي

١٩٣٧/٤/٨

(١) انظر كتابنا (رسائل لها تاريخ) تحت الطبع دار القلم ، الكويت .

٢ – تحية إلى أستاذ الجيل [1]

سبحان من أعطى الورود أريجها ... وحبا الربيع جماله المصقولا

أولاك بالأدب الصفي كأنه ... نضر النعيم محببا مقبولا

وحباك باسم محمد كنبيه ... فأتيت بالنبأ العظيم رسولا

أشرقت في أفق المكارم كوكبا ... يهدي إلى الخلق الكريم سبيلا

ودرجت في مهد السماحة والندى ... وطلعت فذاً في علاك نبيلا

وطفقت تصدع بالبيان مهذبا ... خطرا أصاب المسلمين وبيلا

وأبنت عن عزم تقاصر دونه ... عزم البرية فتية وكهولا

فهمت حواليك البرية ترتجي ... ظلا بساحك وارفاً وظليلا

يسقون من فيض المعارف سلسلاً ... ومن الشمائل كوثراً معسولا

سجدوا الرأي كالحسام مجرداً ... وعنوا لمجد كالربيع أثيلا

خلق كأنفاس الرياض وهمة ... لو شاءت لضرغام جاء ذليلا

مولاي نورك في المشاعر والنهى ... يرتد طرف الشمس عنه كليلا

فصدعت بالنبأ العظيم مزاعماً ... ورددت كيد الظالمين فلولا

وأبنت في المختار سنة أحمد ... فأبنت رأياً صائباً وأصيلا

منن كعقد النيرات بديعة ... ويد على عقل الشبيبة طولى

قسماً لو انتظم الزمان قصيدة ... وأراد شكرك لانثنى مخذولا

أولاه ربي بالكتاب وسره ... فسقى الحديث وعلم التأويلا

فكأنما يوحى إليه بيانه ... عذبا فيروي بالبيان عقولا

لا زلت رمزاً للهداية خالداً ... وبقيت ركنا للعلوم أثيلا

محمد عبد المقصود الجعفراوي

كلية أصول الدين

مايو ١٩٣٤

(١) انظر كتابنا – محمد عبد الله دراز سيرة وفكر – دار القلم ، الكويت .

٣- بدر بأفاق الحنيفة قد بدا [١]

وما بي من حب الغواني وإنما أحب كريم العنصرين "محمدا"
فتى زانه علم وحلم وفطنة وخلق يرينا الطهر والنبل والندى
أبيٌّ همام نابه الشأن حازم وبدر بآفاق الحنيفة قد بدا
نما فرعه من دوحة ألمعية بروض المعالي أصلها قد توطدا
محمد من في حلبة العلم مثلكم وأنت براك الله للعلم أوحدا
إذا ما دجى ليل الجهالة بيننا بعثت لنا من صبح رأيك مرشدا
أبنت لنا التنزيل بعد غموضه وألفت من أشتاته ما تبددا
كأن ابن سينا بيننا كان حاضراً يفتح للأذهان ما كان موصدا
يقيمك دين الله جيشا عرمرما ويشهرك الحق الصراح مهندا
فؤادك نفسي من أديب وعالم أقام جيوش الملحدين وأقعدا
وكل فتى قد ذاق فضلك يرتجي من الله ان تحيا سعيدا بمحمدا

عبد الرحمن نجا الابياري

١٧ مايو سنة ١٩٣٤م

٤- بحر المعارف [٢]

أيا بحر المعارف يا اماما إليه ينتحي حسن الروية
لعلم النحو اقوام ولكن سبقتهموا بهمتك العليه
لقد حزت الحجا والفهم فرداً وما لك من شبيه في مزية
أتيت بكل شاردة وأهدى إلينا لفظك الدرر البهية
أبنت لنا خفايا الفن حتى بدت لعقولنا شمسا جليه
ويا طلاب علم النحو هذا أخو الإنصاف والنفس النقيه
نقي القلب من حاز المعالي بطيب سريرة وصفاء نيه
هو الحبر الخبير وكل شخص له قلب يقر بذي القضية
زكي الأصل عبد الله فاجلوا قلوبكم بحكمته السنيه
أما شاهدتموا ما لاح منه من التحقيق والفكر الوفيه
فنشكره لما أبدى وثني عليه عن لسان الأزهرية

التلميذ / عمران علي

(١) ، (٢) انظر - محمد عبد الله دراز سيرة وفكر - تحت الطبع دار القلم - الكويت .

٥- السيد الوالد الدكتور - محمد عبد الله دراز

فمن عمق ما بك من بحث ، ودقة ما بك من فهم ، وسعة ما بك من إطلاع ، وسمو ما بك من خلق ، وقوة ما بك من حب الكرامة .. والبعد بنفسك عما يمسها من قريب أو بعيد فرفضت الدنيا بما فيها من بريق المنصب ليبقى التاج تاج الكرامة مقدساً لم يمسسه سوء - يزين منك المفرق والجبين [١] .

عبد الله العزازي

المدرس في كلية اللغة العربية

٦- " ... إنه المثل الكامل ، للعالم العامل ، الذي أمده الله بالعلم النافع ، وتَوَجه بالخُلق الكريم ، وجمله بالأدب الوفير .

... كان نفاعاً للعالم بأحاديثه الممتعة القيمة ، كان جماعاً للقلوب ، بعيداً عن مواطن العيوب ، جاهد في سبيل ربه ، وأخلص لله في عمله ، فعرف الناس قدره ، وشهدوا جميعاً بفضله [٢] .

كامل محمد حسن

وكيل كلية اللغة العربية ١٩٥٨م

٧- إلى بقية السلف ومربي الخلف

وأستاذ الجيل بحق أستاذنا الجليل الشيخ / محمد عبد الله دراز

إن أرواحنا لتطير شوقاً ولهفة إلى الانتفاع بهذا الفيض الإلهي من البحوث العالية الغالية وإلى طبعها ونشرها ليعم النفع بها ولتقف حصناً حصيناً وسداً منيعاً في وجه تلك المذاهب الهدامة ومن خدعوا بها ، وأخذوا ينفثون سمومها في شتى الميادين بشتى الأساليب [٣] .

محمد عمارة

٦/١٢/١٣٧٦هـ - ١٤/٧/١٩٥٧م

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) د. محمد عبد الله دراز - رسائل لها تاريخ - جمع واعداد الشيخ أحمد فضلية تحت الطبع - دار القلم - الكويت .

٨- هذا رجل من الأزهر ،

فيه أصالة المؤمن ، وثقافة المسلم ، والقدرة البيانية العربية الفائقة ، استطاع أن يقتحم آفاق الفكر الغربي ويدرس اللغة الفرنسية ويكتب بها رسائله التي يناقش فيها أساطين الفلاسفة الغربيين في نظرياتهم وقضاياهم كاشفاً عن وجه الحقيقة بين بيان الإسلام الناصع ووجهته الصادقة وبين ما تحمل هذه النظريات والمذاهب من قصور والتواء ، بما يجعلها غير صالحة للفطرة الإنسانية في عصر العلم ، ليس للمسلمين وحدهم بل للبشرية كلها وقوامه في هذا كله فهم عميق للقرآن ، وتدبر عجيب له ، وقدرة على تبليغه بأسمى لغة ، ولتقديم الأمثلة إلى العقل الغربي في تمكن عجيب [١].

٩- الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله

ممن يلتزم النصوص الشرعية إلتزاماً دقيقاً ، ويرجع إلى الكتاب والسنة مستدلاً بالمعاني الغريبة لألفاظهما وربما كان له إجتهاد في فهم النصوص المتعلقة بقضايا الحياة المعاصرة ، ولكنه فهمٌ دقيقٌ قائم على الوعي التام ، وعدم مخالفة أئمة العلماء في هذا التفسير [٢] .

أ.د/ عبد الستار فتح الله سعيد

الأستاذ بجامعة الأزهر وأم القرى

١٠- إن المحنة التي يمر بها الإعلام في المرحلة الراهنة والتي لا تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين . حيث يجري "تلميع" غير المستحقين ، والتعتيم على الأعلام الكبار الذين قدموا علمهم وجهدهم وحياتهم خدمة للإسلام .

والدكتور / محمد عبد الله دراز قد ناله شيء غير قليل من هذا التعتيم رغم جهاده العلمي وعطائه الفكري الكبير ، حيث اختار الطريق الصعب ، وسار في حياته العلمية في مجاهيل وطرق وعرة ما خطا فيها أزهري قبله خطوة واحدة [٣] .

أ.د/ عبد العظيم المطعني

الأستاذ بجامعة الأزهر

---

(١) أنور الجندي – أعلام الإسلام – دار الاعتصام .

(٢) مقابلة شخصية تمت المقابلة بمنزل الشيخ بالقاهرة .

(٣) عن ندوة جريدة آفاق عربية عن الدكتور دراز .

١١- لقد كان الدكتور محمد عبد الله دراز [1] إماماً فريداً في علمه وثقافته وخلقه وإجتهاده ، لقد عرفه الناس في تفسير القرآن المجيد من خلال برنامج تقدمة التلاوة في الإذاعة فكان مجدداً في ربط الآيات والسور بعضها ببعض واستنباط دقائق الفكر ، وكنا ونحن طلاب نتلهف على سماع أحاديثه في هذا المجال مع صحبة من أقرانه على رأسهم الإمام الأكبر فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

أ.د/ محمد سيد أحمد المسير

الأستاذ بكلية أصول الدين القاهرة

١٢- الدكتور محمد عبد الله دراز

الرجل الأمين ، والعالم الباحث ، أعجبني فيه نفاذ النظرة ، وجلاء البصيرة ، وعمق التحليل ، وسلامة العرض .

أ.د/ محمد فتحي عثمان

مجلة المجلة العدد١٥ سنة ١٩٥٨م

١٣- في حياة هذا العالم مواطن للعبرة ، يحسن بنا أن نقف عندها ونقدمها للشباب المسلم في كل مكان . فأول ما يفاجئك في هذه الشخصية هذا التزاوج الفذ ، والتلاقح الغني بين ثقافتين متباينتين ، عادت نتيجته بالخير العميم على الثقافة الإسلامية .

الأستاذ الشيخ / منصور الأحمد

مجلة البيان - ربيع الثاني ١٤٠٧هـ

١٤- "دافع عن الإسلام والأزهر والعلماء بإخلاص ويقين وثبات مكين "

أ.د/ رؤوف شلبي

وكيل الأزهر رحمه الله

مقدمة كتاب (آلهة في الأسواق)

نشر دار القلم / الكويت

---

(١) عن برنامج خاص عن الدكتور دراز يذاع كل عام في ٦ يناير ، تقديم الإذاعي اللامع محمد عوض .

١٥- كان الدكتور محمد عبد الله دراز ، نموذجاً رفيعاً للعالم المسلم ، في سلوكه وتواضعه وخلقه وصمته ، ثم في منطقه العذب ، وقوة حجته ، ولا ننسى أن منطقه الساحر قد هز كتائبنا وزودها بالروح المعنوية العالية أثناء العدوان الثلاثي ، وصوته يجلجل كل صباح في حديث الصباح ، ثم وهو يتحدث عن واجب المسلمين بعد الجلاء وتحذيرهم مما يتوقعه من مكائد الأعداء مما تحقق بعد ذلك في مؤامرة الانفصال وغير ذلك ، كنت أعتقد أن تحتفل الإذاعة ويحتفل التلفزيون بذكرى رجل من هذا الطراز ، لأن في إستعادة سيرته دفعاً للروح الوثابة في نفوس الشباب وغير الشباب.

الأستاذ / ناصف سليم

جريدة الجمهورية ١٤ أبريل ١٩٦٥

الصيام جُنّة

**فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ..
فإن سابه أحد .. أو قاتله فليقل : إني صائم ..**

**والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب
عند الله من ريح المسك .**

**للصائم فرحتان يفرحهما، إذا افطر فرح
وإذا لقى ربه فرح بصومه .** (1)

(حديث شريف)

(1) الحديث عن أبي هريرة ﷺ رواه البخاري (١٩٠٤) ، كتاب الصوم - باب فضل الصوم . ومسلم ، كتاب الصيام - باب فضل الصيام ، وانظر كتاب المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب د. يوسف القرضاوي : ٣٠٧/١ حديث رقم٥٠٥ .



الفصل الأول

شهر الهدى والرحمة

١- شهر كريم .
٢- استقبال رمضان .
٣- شريعة الصيام .

١- شهر كريم

واستدار الزمان ..وعاد شهر رمضان...

عاد إلينا بعد أن نسينا كثيرا ، وبعد أن سبحنا في شؤون دنيانا سبحاً طويلاً.

عاد رمضان ، وقدر لنا أن نعود معه لنشهد أيامه الغراء ، ونحيي لياليه الزهراء..
ترى هل يمتد بنا العمر ، فنعود إليه كرة أخرى ؟ أم هل يسبق الأجل ، فلا نلقاه بعد عامنا هذا؟

ألا من اتخذ عند الله عهداً أنه سينسأ له في أجله ، حتى يلقى رمضان في عام قابل ، معافاً في بدنه ، موفوراً في رزقه ، ممكنا من تدارك أمره ، صادقا في نيته راشداً في عزيمته .. من اتخذ عند الله عهداً بذلك ، فليبطئ ما شاء أن يبطئ في عمله ، وليسترسل ما شاء أن يسترسل في أمله ، وليُسوف وليؤجل ، ما بدا له أن يسوف ويؤجل . أما والقدر مستور محجب ، والأجل قد ينتهي في لمحة ، والساعة لا تأتي إلا بغتة ، فمن الحمق والله أن نبيع حاضراً بغائب ، وأن نستبدل شكاً بيقين .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾[1] .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

وفي أي فرصة بعدها يتداركون ؟ أفينتظر كل أمرئ منا حتى يجيئه اليوم الذي يقول فيه :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[3] .

---

(١) سورة الشعراء : الآيات رقم ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية رقم ١٨٥ .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان رقم ٩٩ - ١٠٠ .

أو يقول :

﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

كلا ، بل الحزم كل الحزم ، والكيس كل الكيس ، أن نغتنم هذه الفرصة السانحة وألا نضيع هذه الصفقة الرابحة.

نعم ، إنها لفرصة سانحة . ألا تعرف من فصول الزمان ، فصلا خصيباً يورق فيه الشجر ، ويتفتح فيه الزهر ، وتطيب فيه التربة ، وتبارك فيه الحبة ، فتؤتى أكلها ضعفين أو أضعافاً كثيرة ؟

إنه الربيع ، يتحينه الزراع ويترصدونه ليلقوا فيه بذرهم، وليغرسوا فيه غراسهم.

هكذا رمضان ، هو ربيع الأرواح ، كل ما أزلفت فيه النفس من خير وبر يزكو وينمو ويربو: صيامه وقيامه وصدقاته وغدواته وروحاته كلها مباركة مضاعفة الأجر، وحسبه أن فيه ليلة القدر .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (٢) .

فما أجدر المتخلفين منا عن الركب أن يتداركوا في هذا الربيع ما فاتهم ، وأن يحاولوا اللحاق بالقافلة ، قبل أن ينقطع الطريق بهم .

وما أقدر السائرين منا في هذه القافلة السماوية على أن يضاعفوا اليوم جهودهم، وأن يستحثوا مطاياهم وركائبهم ، ليزدادوا إقتراباً عن مثلهم العليا.

ألا وليكن أول ما نبدأ به حين نستمع إلى هذا النداء ، أن نلتفت إلتفاتة يسيرة إلى الوراء ، لنحصى على أنفسنا سقطاتنا وزلاتنا ، ولنمحو بماء الندم ما مضى من تفريطنا في حق ربنا ، ولنوطن العزم على الجد والإستقامة في مستقبل أمرنا.. تلك هي الخطوة الأولى في الإستجابة لداعي الله ، وتلك هي حقيقة الإستغفار الذي جعله الله ضمانا للأمن والأمان ، في هذه الحياة ، وفيما بعد هذه الحياة ، وذلك حيث يقول عز شأنه مخاطباً رسوله الرؤوف الرحيم :

---

(١) سورة المنافقون : الآية رقم ١٠ .

(٢) سورة القدر : ٢،٣ .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] .

فكان للأمة إذ ذاك حصانتان من البلاء : حصانة بوجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم، وحصانة باستغفارهم لذنوبهم . واليوم وقد ذهبت الحصانة الأولى ولم يبق لنا إلا الحصانة الثانية . فإن ضيعناها هي الأخرى ، بإصرارنا على إقرار الكفر والإلحاد ، وإهمالنا لقمع الفجور والفساد ، فسوف يسلط الله علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، سوف يهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ولن يكون لنا منه يومئذٍ ضمان ولا أمان ، فإن من لا إيمان له لا أمان له :

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[2] .

فلنبدأ عملنا في هذا الشهر الكريم بالإقلاع عن كل ظلم ، والتوبة والإنابة من كل إثم :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾[3] ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[4] .

فإذا أتممنا هذه الخطوة السلبية بالتنزه والتطهر ، بقي علينا أن نتبعها خطوة إيجابية بالتجميل والتكمل ، والبناء والإنشاء .. نعم بعد أن نُفرغ قلوبنا من ظلمات الشهوة، يجب أن نملأها بنور الحكمة ، فليس الشأن كل الشأن في رمضان أنه شهر الجلد والمقاومة، ولكنه فوق ذلك هو شهر الهدى والرحمة .

فيه تزدحم بيوت الله ليلاً ونهاراً بالراكعين والساجدين هدىً ورحمة منشوران على الأرض ، وهدى ورحمة مرسلان من السماء . والقارئين والذاكرين والمرشدين والمسترشدين. وفيه تفيض قلوب المؤمنين رحمةً وحناناً ، وبرا وإحسانا ، بالفقير والمسكين ، واليتيم وابن السبيل . فذلك هو الهدى وتلك هي

---

(١) سورة الأنفال : الآية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآيتان رقم ٨١ – ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية رقم ١٤٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآية رقم ٢٣ .

الرحمة المنشوران على الأرض.

وفيه أنزل القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، وفيه تصب الرحمات وتستجاب الدعوات :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] فذلك هو الهدى وتلك هي الرحمة المرسلان من السماء.

ربنا فاجعلنا أهلاً لرحمتك ، وأوزعنا أن نهتدى بهدايتك : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٦ .

(٢) سورة الكهف : الآية رقم ١٠ .

٢- إستقبال رمضان (١)

أقبل . أقبل . أقبل هلال رمضان.

أقبل فإن عيوناً إلى الآفاق شاخصة تستشرف إلى رؤيتك وإن قلوبنا حولها حائمة هائمة تترقب إجتلاء طلعتك .. ويقول العاذلون : ما بال قلبك هائما بهلال رمضان؟ وهل هو إلا هلال من أهلة العام ؟ وما دروا أنك إلى القلوب أعظم وحيا، وإن القلوب إلى وحيك أيقظ وعياً ، وإن كانت آية الله في الأهلة تتكرر وتتجدد.

فلينظر الناظرون معي إلى هذا القوس النوراني في أول بزوغه . ألا يرون طرفيه كل واحد منهما يستقبل الآخر ويتجه إليه ، ثم لينظروا إليه ليلة بعد ليلة . ألا يرون كلا الطرفين يقترب من صاحبه إقترابا ويسعى إليه سعياً وئيداً إلى أن يتعانقا ويلتحما.. أفلا يجدون في ذلك إيحاء علوياً أولا يسمعون منه نداءاً خفياً ؟

إن هذه الصورة لتمثل في أعيننا موقف المؤدب إذا أراد أن يصور للناظرين حركة الإحاطة والضم أو حركة الإنضمام والإلتئام ألا نراه يبدأ بفتح سبابته وإبهامه فتحة منفرجة ثم يأخذ في ضمها رويداً رويداً ليجعل منهما في النهاية حلقة مفرغة ؟ هكذا تتمثل لنا ظاهرة الهلال في نشأته ونموه ، كأنها فتحة إصبعين ثم إنطباقهما .. إصبعين رمزيتين شارة من شارات الرحمن يخاطب بها من أراد أن يتدبر ويتذكر يوحى بها إلى العالم كله إيحاءة واحدة ثم يوحى بها إلى المؤمنين خاصة إيحاءةً أخرى. يشير بها إلى الناس كافة أن الخلق والأمر كله بين هاتين الإصبعين فوجهوا وجوهكم جميعا إلى من هذه الأرض في قبضته وهذه السموات مطوية في يمينه فلا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ثم يشير إلى المؤمنين خاصة أن ترسموا هذه الصورة في حياتكم . فكما كنتم لربكم أمة موحدة فكونوا فيما بينكم أمة موحدة .. أرأيتم كيف يتدانى طرفا الهلال ويتكامل خلقه حتى يصير بدراً كاملاً ؟ فكذلك فلتتواصل أطرافكم ولتتلاصق صفوفكم ولتتجمع

---

(١) أذيع صباح الأحد ١٩٥٤/٥/٢م .

قلوبكم ثم لتتحول فيكم هذه الوحدة الجامعة وحدة مانعة تصبحون بها يداً على من سواكم سلماً لمن سالمكم وحرباً على من عاداكم .

تلك معان قد يستوحيها المستوحى من كل هلال ولكن ترجمة آياتها وتعبير دلالاتها إقترنت في تاريخنا بشهر رمضان الذي فيه بدء الوحي ، وفيه أنزل القرآن وفيه يوم بدر وفيه يوم الفتح وفيه ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر .

أقبل إذاً هلال رمضان ! ليكن مطلعك على الإسلام من أفق العزة والنصر وعلى المسلمين من فلك السؤود و المجد وليكن مقدمك على البلاد أمنا ورخاء ونعمة وعلى العباد يُمنا وإخاءاً ورحمة .. أقبل وسارع وإقترب لتضع للناس ميزان الحق مكان ميزان القوة ولتقيم فيهم قانون اللين والرفق بدل قانون البطش والقسوة.أقبل على الأرض فاملأها نورا وسلاما بعد أن ملئت ظلما وظلاما.

أقبل هلال رمضان فأشرق على ربوع الإسلام وأنزل على أبنائها من إيحائك الرشيد أشعة قوية تقود خطواتهم ، تلاحقهم في مساجدهم وأسواقهم ، وتتابعهم في أنديتهم ومجامعهم ، وتغشاهم في بيوتهم ومضاجعهم وتنفذ إلى قلوبهم في خلواتهم وجلواتهم.

أقبل على بيوت الله فاغمر ظاهرها وباطنها بنورك.خل مناراتها تأخذ زينتها عقودا وقلائد تباهي بها مصابيح السماء ثم إفتح أبوابها ليلا ونهارا بعد أن كانت لا تفتح إلا لماماً ، ثم انفذ إلى باطنها فاملأه روحا وحياة لا تخلها ساعة واحدة من راكع أو ساجد أو قارئ أو ذاكر أو مرشد أو مسترشد .. وهكذا أعدها كما كانت أول يوم : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ، رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[1] .

ثم أطل على أندية المسلمين ومجامعهم ، وهي لاهية لاغية ، لا خير في كثير من نجواها ، ولا يطيب لهم إلا لحوم موتاها . فألزم سمارها الصوم عن اللغو

(١) سورة النور : الآيتان رقم ٣٦ ، ٣٧ .

والهجر ، والرفث والفسوق ، وذكرهم بدستور المجالس في القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [1] .

ثم عرج على أسواق المسلمين وهي في لجب وصخب يسودها الجدل والمراء والخصومة والشحناء ويفشو فيها الشح والحرص والغش والمكر والخديعة والغبن وتروج فيها المهاترة والأيمان الفاجرة . عرج فاشرق عليها بوجهك الصبوح السموح وألق عليها مسحة من صباحتك جدد لمن فيها عقد إيمانها حتى يخففوا من غلوائهم وجشعهم.قل لهم أيها الناس :

لقد علمتم أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها.فاتقوا الله إذاً وأجملوا في الطلب ثم ذكرهم بوصية نبيهم " رحم الله رجلا سمحا إذا باع سمحا إذا إشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا إقتضى " .

أقبل هلال رمضان وأغشي كل عامل في عمله وكل صانع في صنعته وكل حاكم في حكمه وكل ذى مهنة في مهنته فأشعرهم بتقوى الله في أعمالهم ومراقبته في سرهم وعلانيتهم وناشدهم رعاية الحقوق والمصالح الموكولة لأمانتهم وقل لهم مقالة القائد الأعظم (إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه) .

ثم لج البيوت والدور والأكواخ والقصور فاطبعها كلها بطابع الإسلام وأدبها بأدب القرآن ، سو بينها في الجوع والظمأ نهارها وفي الري والشبع ليلها لا تدع فيها أحداً يبيت شبعان وجاره طاو إلى جنبه ولا أحداً يظل نهاره طاعما راويا وهو قادر على أن يؤدى حق ربه .

أقبل علينا أفراداً وجماعات فأيقظ قلوبنا الغافلة من سباتها وأطلق أرواحنا المكبوتة من عقالها .

أقبل شهر رمضان ! أقبل شهر رمضان ! أقبل شهر القرآن أقبل فجدد عهدنا

---

(١) سورة المجادلة: الآية رقم ٩ .

بكتاب ربنا عهداً شاملا كاملا حتى نكون من أهله حقا وصدقا درسا وفهما وعمـلا وحكما.

أقبل علينا قادما كريما وأحلل بيننا ضيفا عظيما.وإن يشأ الله يجعلنا أهلا للوفاء بحقك كفنا لإكرام ضيافتك...

اللهم فاسمع وإستجب.

٣- شريعة الصيام[١]

أيها الصائم...

أيها الصائم المضحي برغائبه ومشتهياته المتجافي عن متع جسمه وملذاته تقضى نهارك طاويا والطعام الشهي في متناول يديك ، ظمآن والشراب الهني يترقرق أمام عينك ، قل لي بربك ، فيم هذه التضحية ، وفيم هذا الحرمان؟

إن العاقل ، لا يقدم أمر إلا إذا رسم هدفه وحدد غايته ، وإن المؤمن ، لا يعمل عملا إلا إذا صحح فيه نيته ، وتبين سداده وإستقامته . فهل حددت هدفك من صيامك وصححت نيتك فيه ؟ أم هي العادة الموسمية ، والمتابعة للعرف السائر؟.

إنى لأربأ بك أن تكون في مسلكك هذا ، أسيراً لعادة من العوائد ، فردية كانت أو جماعية ، فإن الله الذي جعل زمام قيادتك في عقلك وقلبك ، لا يرضى لك أن تتبدل من هذه القيادة الرشيدة ، قيادة العادات العمياء ، التي تجعل منك آلة أو شبه آلة . وإن الله الذي خلقك سيد نفسك ، يكره منك أن تكون إمعة تصوم كما يصوم الناس ، وتفطر كما يفطرون ، وأنت لا تدرى فيم صاموا ولا فيم أفطروا.

أما إذا كنت فكرت وقدرت ، وآثرت هذه التضحّية والحرمان عن بصيرة وبينة، فحدثني ملياً عن دخيلة نفسك ، وصف لى حقيقة الخير تبتغيه من هذا الصوم .

هل رأيت فيه إستجماما لأجهزتك ، وتجديدا لأنسجتك ، وحمية تصحح بها بدنك ، أو وجدت فيه إقتصاداً لشيء من نفقاتك ، وادخارا لبعض أوقاتك ؟ أو رأيت فيه فرصة لإعلان شدة مراسك وقوة احتمالك ! وتحديك للشدائد والآلام واستعدادك لنوب الزمان؟

---

(١) أذيع في مساء الخميس ٨ من رمضان ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦/٤/١٩م .

أيها الصائم...

إني لست أنكر ، أن يكون من خصائص الصيام ، الوفاء بهذه الوظائف كلها ، وأضعاف أضعافها ، ولكنى أحذرك وأنذرك ، أحذرك ، أن يكون هدفك وهمك شيئا ، من هذه الأغراض النفعية وأشباهها.وأنذرك بأنك إن فعلت ذلك ، لم تزد على أن تكون رجلا رياضيا جسورا ، أو إقتصاديا دقيق الحساب ، أو متطبباً يلتمس أيسر السبل للوقاية أو العلاج ، أو ما شئت أن تكون غير ذلك ، أما أن تحسب نفسك صائماً في نظر الإسلام فلا..

فالصوم في الإسلام لا يكفي فيه هذا المظهر السلبي المادي ، الذي يقوم على إجتناب المفطرات لأي باعثٍ كان ولأي هدف إتفق . وإنما هو قبل كل شئ عملٌ روحي إيجابي ، يتحرى فيه العامل الهدف الذي حددته له الشريعة ، ويجعل نيته فيه ، وفقا لإرادة ربه منه . فاعرف إذاً ، ماذا أراد ربك من صومك واعمل على أن تكون نيتك وفقا لإرادته ، وليكن أول ما تذكره من ذلك ، أن الله الرحيم ، لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته ، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله ، وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ، ترى في ألم الجسم مقصدا يطلب . وترى في الإرتفاق بالطيبات عدوا يحارب ، فليس الإسلام من بين هذه الأديان . كيف وهو الذي يقول : ﴿ لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[1] .

ويقول : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[2] .

إنه لو كانت غاية الصوم هي إشعار الصائم بالجوع والعطش ، لكان الرجل العادى ، يكفيه صوم جل اليوم ، بدل صومه كله ، ولكان الرجل الفاقد لشهية الطعام ، يجب عليه أن يضيف مدة أخرى يشعر فيها بألم المخمصة ، ولكننا نعلم، أن الذي يزيد في مدة الصوم ، ولا يتحلل من حرماته ولو بالنية عند غروب الشمس ، آثم . وإن مثله في الإثم كمثل الذي ينقص من مدة الصوم ، فيفطر قبل

(١) سورة المائدة : الآية رقم ٨٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥.

الغروب . ونعلم من جهة أخرى أن الـذي يراعي شـرائط الصـوم وحـدوده ، وهـو على صومه معان ، ولـه ميسـرٌ مـبرورٌ مـأجور ، كـالذي يكـابد فيـه شـيئاً مـن تغير المزاج .

ليس هدف الصوم إذا هو هذا الألم البدني ، وإن كـان هـذا الألـم قـد يقـع فـي طريقه.

إن الله عز وجل حين قال لنا : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾[1] لـم يقـل : لعلكـم تتألمون، كما أنه لم يقل لعلكم تصحون، أو لعلكم تقتصدون، وإنما قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] فجعل الصوم اختبارا روحيا، وتجربة خُلقية وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين، وأداتك في إكتساب ملكة التقوى .

التقوى . هذا هـو الهـدف الحقيقي ، الـذي إن أصبتـه جـاءت مـن ورائـه كـل الثمرات مكرهة راغمة ، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِـهِ وَمَـنْ كَـانَ يُرِيـدُ حَـرْثَ الدُّنْيَـا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [3] .

فما أدراك ما التقوى ؟ إنك لن تحيط بكنهها ، ولن تقدرها حق قدرها ، إلا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود . فاعلم أن للوجـود ثـلاث مراتـب(مرتبـة السيادة العظمى وهـذه قـد اسـتأثر بهـا الواحـد الأحـد ، الفـرد الصمـد .. ومرتبـة العبودية الدنيا) .

وهذه هي مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة ، والتي ليس لها مـن الحرية نصيب ، كالجماد والحيوان.وإن الإنسان ليهبط إلى هـذه المنزلـة إذا وقـع أسيرا في قبضة شهواته . وبين هـاتين المرتبتيـن مرتبـة تجتمـع فيهـا السـيادة علـى الكون.والعبودية لخالق الكون وتلك هي المنزلـة التـي يصعـد إليهـا الإنسـان ، إذا

(١،٢) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٣.

(٣) سورة الشورى : الآية رقم ٢٠ .

وقف يتلقى أوامره العليا من ربه ، ثم جعل يلقى هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح .

فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها ، فصار قائدا مطاعا في جنده ، سيدا مهاباً في مملكته الصغيرة ، فقد نال صفة التقوى ، وأصبح جديرا بالاستخلاف في الأرض والتمكين له فيها . وأكرم بعبودية هي عين السيادة .

تلك هي التقوى التي أراد الله أن تكون ثمرة صيامك . وهي في الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعا.غير أن للصوم في تحصيلها أثرا أوسع وأعم.والمنزلة التي يبلغها الصائم بين مراتب المتقين ، هي أعلى المراتب وأسماها.

أما أن أثر الصوم في التقوى أوسع وأعم ، فلأن التقوى التي تثمرها سائر الواجبات إنما هي كفٌّ عن المحارم . أما الصيام فإنه يجئ من وراء هذه الدائرة المحظورة ، فيضيف إليها نطاقا جديدا ، يعلمنا به كيف نكف بعض الحلال والمباح ؟ وكيف نستغني أحيانا عما هو في العادة من مقومات الحياة.فإذا كانت الطاعات الأخرى تورث أوائل درجات التقوى ، بالإعتدال والإستقامة ، فإن الصيام يورث نهاية درجاتها ، بالزهد والورع .

إن منزلة الصيام هي الصيام ، هي أسمى مراتب التقوى ، وأكرمها عند الله ، فإن في سائر العبادات جوانب ، تحببها إلى النفوس الكريمة ، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة : ففي الصلاة مثلا ، حلاوة المناجاة وفي الزكاة ، أريحية الجود والكرم ، وفي الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم . أما الصيام ، فإنه ليس فيه معاونة من الطبع ، بل فيه على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص عن الشوائب.ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة ، من العشرة إلى السبعمائة ، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد ، كما جاء في الحديث القدسي : (كل عمل بن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى به) [1] ومصداقه في الكتاب العزيز : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة : رواه البخاري ، كتاب الصوم – باب هل يقول إني صائم إذا

–

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

هذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا ، لمن فقه حكمة الصوم وصحح فيه نيته ، وذلك إنما يكون بجعله نهاية الطهر لا بدايته.فبداية الطهر ، طهر الأبرار ، بترك المحارم ، ونهاية الطهر ، طهر الأخيار ، بالتحرر من عادة الترف والعيش الناعم ، حتى إذا جاء الغد وجد الجد ، ودعا الداعي إلى التضحية العظمى ، نكون قد أخذنا للأمر عدته ، حيث مارسنا الصبر وشدته . ويومئذ نرضى بالظمأ ، والنصب، والمخمصة في سبيل الواجب ، ولا نرضى أبدا أن نعود إلى الترف . والنعيم تحت الذل وفي قبضة الغاصب . وتلك هي عبرة الساعة من درس الصيام .

فاعتبروا يا أولى الألباب.

شتم ، ورواه مسلم ، كتاب الصيام – باب فضل الصيام .

(١) سورة الزمر : الآية رقم ١٠ .



الفصل الثاني

تربية وجهاد

١- الصوم والمعانى الإيجابية .
٢- الصوم والمظهر الجماعى .
٣- الصوم والمعانى الإنسانية .
٤- فاكهة المجالس الغيبة .
٥- للصائم فرحتان .



١- الصوم ... والمعاني الإيجابية

أيها الأخ الصائم..

لقد تحدثت إليك من قبل عن شريعة الصوم ومغزاها .

وقد إنتهي بنا الحديث إلى هذه النتيجة ، وهى :

إن مافي الصوم من كبت وحرمان ، ليس هدفه هذا الكبت والحرمان ، وإنما الصوم وسيلة إلى غايةٍ نبيلة .

إنه التدريب على السيادة والقيادة ، قيادة النفس وضبط زمامها ، وكفها عن أهوائها ونزواتها ، بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها.فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمى جوفك عن تناول السحت والخبيث ، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب.ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء ، فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة وعن إجابة التحريش والاستفزاز ، " فإن خاصمك أحد أو شاتمك ، لم تزد على أن تقول : (إنى صائم إنى صائم) " هكذا ملكت بالصوم زماميّ شهوتك وغضبك .. وإنه لصبرٌ يجر إلى صبر ، ونصرٌ يقود إلى نصر.فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعا مختارا في وقت الأمن والرخاء ، فأنت غدا أقدر على الصبر والمصابرة ، في البأساء والضراء وحين البأس ، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك ، فلقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدا على عدوك . وتلك عاقبة التقوى ، التي أراد الله أن يرشحك لها بالصيام .

أيها الأخ الصائم ذلك كان حديثاً بالأمس أما اليوم فإنى سأزيدك وأزيدك .

إن هذا الهدف الذي صورناه وحددناه ، إنما يقوم في منتصف الطريق ، الذي رسمه الله للصائمين ، وإن في نهاية هذا الطريق ، هدفاً آخر ، بل أهدافاً أخرى أهم وأعظم .

وفي الحق إنه لو كان كل ما يطلب من الصائم ، هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها ، ولم يكن أمامه عملٌ إيجابيٌ جديد يسد به هذا الفراغ ، إذاً لكانت تجربة الصوم انتقاصاً للطاقة العاملة من ناحية ، دون إمداد لها من ناحية

أخرى . وإذاً لكانت على حد تعبير العلمـاء(تخليـة) (بـلا تحليـة)أو تجـارة مأمونـة الخسارة ، ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة .

فهل شريعة الصوم في الإسلام هي تلك الصور العارية الجرداء؟كلا إنهـا عبـادة ذات شطرين وليس شطرها الأول إلا تمهيدا وإعـدادا لشـطرها الثـانى.إنهـا شـجرة جذعها الصبر ، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلا مـاحلا ، بـل يريد أن ينبت على جوانبه أغصاناً من الشكر ، وأن يتوج هامته بـأوراق وثمـار مـن الذكر والفكر. وإن من تأمل كلمة التقوى التي عبر بها القرآن الكريـم فـي حكمـة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين.

فهي في شطرها الأول كفٌ وإنتهاءٌ وابتعادٌ واجتناب ، لكنها في شـطرها الثـانى إقبال واقتراب ، وإنشاء وبناء .

وإذاً فليس الشأن كـل الشـأن ، فـي أن يغلـق الصـائم منـافذ حسـه ، ويسـكت صوت الهوى في نفســه، فذلـك إنمـا يمثـل إغـلاق أبـواب النـيران، ولكـن الشـأن الأعظـم فـي أن يكـون إغـلاق منـافذ الحـس، فتحـاً لمسـالك الـروح ، وأن يكـون إسكات صوت الهـوى تمكينـاً لكلمـة الحـق والهـدى. فتلـك هـي مفـاتيح أبـواب الجنان . ومن كان في شـك مـن أن هـذا الجـانب الإيجـابى ، هـو الهـدف الأخـير لشريعة الصوم ، فليقرأ كتاب الله ، يجد دلائله مثبوتة في تضاعيف آيات الصـوم ، وليطالع سنة رسول الله ﷺ يجد معالمه مبسـوطة فـي هديـه النبـوي قـولاً وفعـلاً . والعجيب في هذا التوجيه ، أن الإسلام لم يتركه دعوة مُرسلة ، بل وضـع له منـاهج معينة ، ورسم له خططاً مفصلة ، ذلك أنه لما جعل شــهر الصـوم موسـماً لانطـلاق الروح من عقالها ، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق منهما :

باباً إنسانياً وبابا ربانياً فأمـا إنطـلاق الـروح فـي رمضـان مـن البـاب الإنسـانى ، فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنـا فـي الطعـام والشـراب ليـس قبضـاً وإمسـاكاً بـالحفظ والإدخـار ، بـل بسـطاً وسـخاءً بـالبذل والإيثـار . لا تسـد أيهـا الصـائم جوعتك، ولا تنقع غلتك ، ولكن أطعم الجائع واسـق الظمـآن . وهـذا هـو الصـوم كما فهمه إمامنا الأعظم صلوات الله وسلامه عليه . فقد "كان أجود ما يكـون فـي

رمضان ، حتى إنه كان فيه أجود من الريح المرسلة" [١] .

وما زكاة الفطر في آخر رمضان ، إلا الحلقة الختامية ، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية ، التي تحولت فيها فضيلة الصبر ، إلى فضيلة الشكر ، إتباعاً لإرشاد القرآن الكريم حين يقول : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢] .

وأما إنطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني : فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة ، ورسم لها سُبلاً ذللاً .

تسبيح وتحميد ، تكبير وتمجيد . ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾[٣] تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[٤] ركوع وسجود ، وقيام وتشمير ونهوض : "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه"[٥] وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، إلا نهاية الشوط في هذا السير ، إقبالا على الله وانقطاعا بالكلية إليه : ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[٦] .

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني ، إنما هو في مناجاة الله بكلامه ، وفي مدارسة كتابه ، كما كان يفعل الرسول المصطفى ﷺ من البشر ، والرسول المصطفي من الملائكة ، إذ كانا يتدارسان القرآن في رمضان في كل عام . ولأمر ما نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن ، وجعلها أوْلى

---

(١) حديث متفق عليه ، رواه البخاري ، كتاب الصوم – باب أجود ما كان النبي ﷺ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥ .

(٤) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٦ .

(٥) حديث متفق عليه : رواه البخاري ، كتاب الإيمان – باب صوم رمضان إحتساباً من الإيمان ، ورواه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح .

(٦) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٧ .

المناقب والمزايا التي اختص بها هذا الشهر المعظم فقال جلت حكمته : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(1) فكان ذلك إيماءاً لنا بأن نجعل حظ رمضان من القرآن أوفر الحظوظ .

وإذا كان من شأن الأمم الحية التي تعنى بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها ، فلم يكن بدعا من الأمر أن يجعل الإسلام شعار رمضان هو الإحتفال بمولد دستوره السماوي ، الذي ختم الله به الشرائع ، وأتم به مكارم الأخلاق .

ألا وإن أفضل أسلوب عرفه الناس في الاحتفال بعيد الدستور هو أن يجعل يوم ذكراه يوم تجديد لعهد الولاء له ، وتأكيد للحرص عليه والاستمساك به .. فكذلك فليكن احتفالنا بشهر رمضان احتفالاً بالقرآن الذي أنزل فيه . تعبداً بتلاوته وسماعه ، واستظهاراً لآياته ، وتفقهاً في معانيه ، وتأدباً بآدابه ، واتباعا لأحكامه . ألا ولتكن نصب أعيننا هذه الحقائق الأليمة ، وهي أن قراء القرآن وحفاظه أصبحوا يقل عددهم عاما بعد عام ، وأن القائمين بأحكامه الواقفين عند حدوده ، قد أصبحوا أقل من القليل ، فالقرآن القرآن أيها الصائمون ، ثم القرآن القرآن أيها المسلمون ، وإياكم أن ينفذ هذا الكنز من بين أيديكم . واعلموا أن الله ما كان ليعذبكم والقرآن فيكم : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(2) .

تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام ، وجمعنا وإياكم تحت راية القرآن ، يوم تدعى كل أمة إلى كتابها آمين .آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(1) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥ .

(2) سورة الأنعام : الآية رقم١٥٥ .

٢- الصوم.. والمظهر الجماعي [(١)]

أيها الأخ الصائم .

سلام الله عليك ورحمة الله ونعمته وبركاته .

لقد جلت معك جولتين ، في الكشف عن أسرار شريعة الصوم . وقد انتهينا في الجولة الأولى إلى أن المؤمن يجد في تجربة الصوم من تربية عزيمته وتمكين سلطانه على نفسه مالا يجده في سائر الواجبات .

فالواجبات الأخرى إنما تفطمه عن شهواته المحرمة وانفعالاته العدوانية.

أما الصوم فإنه ينتصر به حتى على نزعاته المباحة وانفعالاته البريئة.

العبادات الأخرى تحصل له أوائل درجات التقوى ، بالاعتدال والاستقامة ، والصوم يورثه نهاية درجات التقوى بالورع والزهادة .

وانتهينا في الجولة الثانية إلى تلك الأهداف الوقائية إنما هي تمهيدٌ وإعدادٌ لأهداف أخرى ، إيجابية إنشائية فإغلاق الصائم منافذ حسه يراد منه أن يكون فتحاً لمسالك روحه. وإسكاته صوت الهوى في نفسه يطلب منه أن يكون تمكينا لإعلان قول الحق والعمل به. وهكذا كانت الحكمة التي فتحت بها آيات الصيام "لعلكم تتقون" تمهيداً للحكمة التي ختمت بها آياته ..

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(٢)] .

والآن وقد أتممنا هاتين الجولتين ، فإني أدعوك أيها الأخ الصائم ، إلى جولة ثالثة تكشف فيها عن ظاهرة أخرى لا توجد إلا في صوم رمضان ، فهذا الضرب من الصوم ، يمتاز عن سائر أنواع الصيام في الإسلام بأنه لا يخص فرداً دون فرد، ولا فئة دون فئة ، كشأن النوافل والكفارات ، وأنه لم يترك لأحد الخيرة في تحديد بدايته ونهايته ، ولا في جمعه وتفريقه متى شاء وبقدر ما شاء ، ولكنه جعل ضريبة الوفاء على الأمة جمعاء ، في موسم معين من العام ، وفي مقدار معين من

---

(١) قراءة أحد المذيعين (سيد الغضبان في مساء الخميس ٢٢من رمضان ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦/٥/٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥ .

الأيام ، وفي وقت واحد ، وفي نسق واحد .

هذا الطابع الإقتراني الشامل يكفي وحده للدلالة ، على أن هذه الفريضة السامية لا يراد منها أن تكون مجرد رياضة روحية تصل بين العبد وربه فحسب ، ولا مجرد تجربة إنسانية من التعاطف والتراحم في حالات فردية متفرقة ، ولكنه يراد أن تكون في الوقت نفسه حلقة اتصال بين الأمة كلها وأن تكون رباطا من الرحمة بين المؤمنين ، تصهرهم جميعاً في قالبٍ واحد ، وفي جسدٍ واحد .

على أن فريضة الصوم ليست في هذا بدعا بين فرائض الإسلام الكبرى ، وشعائره العملية العظمى . فكلها لو تأملنا تتمثل فيها هذه الطبيعة الثنائية ، الروحية الجماعية . حتى إن الشعائر ذات الطابع الروحي البارز ، كالصلاة والحج، قد أمدتها الشريعة بعناصر ، وأحاطتها بمظاهر ، وقيدتها بشرائط ، تجعل جانبها الاجتماعي لا يقل شرفا وخطراً عن جانبها الروحي .

انظر إلى الصلاة القائمة ، وقد نهض القائمون بها كبيراً وصغيراً ، غنياً وفقيراً، مأموراً وأميراً ، ثم أنظر إليهم وقد تخلل بعضهم بعضاً ، وامتزج بعضهم ببعض ، ثم استقبلوا جميعاً قبلة واحدة ، واتبعوا كلهم قيادةً واحدة ، وانتظموا صفوفاً كأنها البنيان المرصوص ، ثم تطابقت حركاتهم وسكناتهم ، وأقوالهم وإشاراتهم ، كأن أجسامهم قد تحولت جسماً واحداً ، وكأن أسماءهم وأبصارهم وألسنتهم صارت سمعاً وبصراً ولساناً واحداً .

ثم انظر إلى مناسك الحج وقد إجتمع الناس إليها من أقطار الأرض ، في صعيد واحد ، حفاة أو شبه حفاة عراة ، أو شبه عراة ، متجردين من كل زينة الحياة إلا ثيابا كأنها ثياب ما بعد الحياة ، وقد محيت من بينهم هكذا فوارق الأحساب والأنساب ، والمناصب والألقاب ، ثم استمع إليهم وقد أخذوا يرددون شعاراً واحداً ، هو شعار الإقبال على الله ، والإعراض عما سوى الله .

من هذه الزاوية عينها ننظر إلى فريضة الصيام ، فنرى فيها مظهراً من مظاهر هذا التماسك ، وهذه الأخوة والمساواة الإسلامية ، إنهم يصومون معاً ، ويفطرون معاً، دون امتياز لأحد .

فإذا رفعت راية الهلال في سماء رمضان ، رأيت المسلمين في مشارق الأرض

ومغاربها وقد وقف كل منهم في مكانه على قدم الإستعداد ، لبدء حركة التدريب على الطاعة والنظام ، وإذا هُم كُلهم قد أخذوا يرهفون أسماعهم ، ويفتحون عيونهم ترقباً لإشارة القائد الأعلى إليهم بالإقدام أو بالإحجام . وما هو إلا أن تمضي الليلة الأولى من الشهر ، وإذا هم طوال الشهر يتلقون كل يوم عن هذه القيادة العليا توجيهين متعاقبين ، كلما طلع الفجر ، سمعوا أمراً بالإحجام عن كل مشتهياتهم ، وكلما غربت الشمس ، تلقوا إذنا بالإقبال على الحلال من تلك المشتهيات . فتراهم في لحظة واحدة ، قد تحركوا طوع الأمر حركة واحدة ، إيجابية أو سلبية ، وتراهم قد ارتسمت عليهم من هذه الحركة صورة لازبة لا تفارقهم نهارهم أو ليلهم ، فلا ترى منهم في النهار طاعماً ولا راوياً ، ولا ترى منهم في الليل ممسكاً ولا طاوياً ، بل تراهم وقد انطبعت على نظام حياتهم مسحة جديدة من هذا النظام ، في عملهم وراحتهم ونومهم ويقظتهم وسائر شئونهم وتصرفاتهم ... حتى إذا رفعت راية الهلال في سماء شوال كان ذلك أمراً بتسريح هذه المعسكرات المنشورة في كل مكان ، فعاد كل جندي إلى سيرته الأولى مدرباً مجرباً .

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى : جعل الله كل واحدة منها قُطباً ذا طرفين ، طرف يربط المؤمن بربه ، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين ، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعا لمحبتين ، لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتين : المحبة لله ، والمحبة في الله .

هكذا أراد الله أن يجعل من عبادتنا شعار لوحدتنا ، بل أراد أن يتحول هذا الشعار شعوراً ، وأن يصبح هذا الشعور ناراً ونوراً ، ناراً تفري قلوب الأعداء ، ونوراً يسرى إلى قلوب الأولياء ، تواصلاً وتراحماً وتسانداً وتعاوناً ... معان تتفتح أبوابها في كل عبادة جماعية ، وهي في عبادة الصوم المشترك أجلى وأظهر ، وذلك أن تجربة الصوم المشترك زمالة في الجهاد ، ورفقة في مكافحة الشدائد ، أرأيت الرفيقين في الجهاد إذا كان أحدهما ذا فضل وسعة في زاده وعتاده ، هل تطاوعه نفسه أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد أو العتاد.؟

كذلك تنصهر القلوب المؤمنة كلها في بوتقة الصيام ، فتعود قلباً واحداً في جسدٍ واحد ، وهذا هو المثل الأعلى في وحدة الأمة التي يؤهلنا لها صوم "رمضان" .

٣- الصوم .. والمعاني الإنسانية (١)

إن الذي لا شك فيه أن الجانب الإنساني في الإسلام يحتل مكانة مرموقة .

ولو أننا سألنا رجلاً من عامة المسلمين عن الشعار الوجيز الذي تتجمع فيه عناصر الفكرة الإسلامية ، لأجابنا من فوره بكلمتين : توحيد المعبود وتصديق المرسلين. إجابة صحيحة في الجملة .. ولكنها لا تُلقي على الفكرة الإسلامية إلا ضوءاً جانبياً ، إنها تصور لنا النفسية المسلمة كما لو كان صاحبها كائناً ربانياً خالصا لا صلة له بهذا العالم الذي يعيش فيه ، أو أن له به صلة مطوية منسية ، لا يعرف كنهها في نظر الإسلام.

ولكن الدين في صورته الكاملة حقيقة تتجاوب مع حاجات النفس ونزعاتها فتلاحقها في كل خطواتها ، وتقودها في جميع حركاتها ونحن إذا تتبعنا حركات النفس الإنسانية حين تستشرف إلى خارج نطاقها ، نجد لها اتجاهين مختلفين ، لو تجسد أحدهما لتمثل في خط رأسي يصعد بها نحو الحقيقة المقدسة العليا ، ولو تجسد الآخر لارتسم في دائرة أفقية تربطها بالجماعة البشرية التي هي عضو منها.

فالتحليل الوافي للعقيدة الكاملة يجب أن يحدد وجهة نظرها في هاتين العلاقتين :

١- علاقة العبد بربه .

٢- علاقة العباد بعضهم ببعض كما يجب .

٣- أن يبين وجهة نظرها في ماهية السلطة التي تنظم هاتين العلاقتين .

وهكذا ينبغي أن يكون شعار الإسلام مثلث الأركان .

ترى أين نجد هذا الشعار المثلث للفكرة الإسلامية ، إن لم نجده على لسان مؤسس الإسلام نفسه ، ألا فلنستمع إليه - صلوات الله وسلامه عليه ، حين يناجي ربه بهذه الاعترافات الثلاثة.

"اللهم ربنا ورب كل شئ ، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك .

اللهم ربنا ورب كل شئ أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك.

---

(١) أذيع في ١٩٥٣/٦/١٤م وأعيدت إذاعته في ١٩٥٦/٥/١٢مع بعض تعديل .

اللهم ربنا ورب كل شئ أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة .

بل مالنا نلتمس مطلبنا في بطون كتب السنة وهو منشور بين أيدينا في كتاب الله في ثلاث سور متواليات:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ﴾[1] .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾[2] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾[3] .

تلك إذاً هي قواعد الإسلام الكبرى وهذا هو شعاره الجامع .

دين خالص لله .

رحم من الأخوة بين الناس كافة .

دستور سماوى ينظم علاقتنا بالله..وبالناس .

والآن فلنلق نظرة عاجلة نوازن بها بين الشعار المثلث الإسلامى وبين الشعار المثلث المشهور الذي تمخضت عنه الثورة الفرنسية والذي اقتبسته منها سائر الأمم المتحضرة .

حرية ... إخاء ... مساواة .

ننظر بادئ ذي بدء إلى الشعارين في جملتهما. فنرى شعار الإسلام ينظم العنصرين الروحي والإجتماعي معاً ، بينما شعار أوربا الحديثة مقطوع الصلة بالسماء ، مجرد من كل معنى روحي . ثم ننظر إلى العنصر المشترك بين الشعارين وهو الجانب الإنساني فنرى الإسلام قد صاغه في مبدأ واضح موحد ، على حين نجد الفكرة الأوربية تتقلب وتتردد بين مبادئ ثلاثة أولها يدفع ثانيها ، وثانيها يهدم أولها .

فمبدأ الحرية إذا أُخذ على حقيقته وفي أوسع معانيه ، كان هو الانطلاق الذي لا يعرف حدودا ولا قيوداً ، والفوضى التي لا تخضع لقانون ولا نظام. كما أن مبدأ

(١) سورة محمد : الآية رقم ١٩ .

(٢) سورة الفتح : الآية رقم ٢٩ .

(٣) سورة الحجرات : الآية رقم ١٣ .

المساواة إذا فهم بمعناه الحرفي الدقيق كان قانونا حديديا صارماً ، مُصادماً للحريات ، متجاهلاً لكل تفاوت في القيم ، وكل تمايز في الدرجات حتى لو كان هذا التفاوت نتيجة منطقية لتفاوت المؤهلات ، وكان هذا من الرأفة والرحمة ، ولا تأبى تقديم من هو أحق بالتقديم منها وإسناد الأعباء إلى أيهما أقوى على حملها .

وهذه هي الحرية في انبعاثها الطبيعي القديم .

وهكذا يلتقي في أحضان الأخوة ما في الحرية من إنطلاق ونمو لكن في غير جورٍ ولا شطط وما في المساواة من ضبطٍ وعدل ، لكن في غير كبتٍ ولا حرمان.

هذه هي الأخوة التي جعلها القرآن رحماً موصولة بين الناس جميعاً ووصانا برعايتها أبلغ وصية وأكدها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[1] .

ها هنا يكمن دستور الإنسانية ، ومن هنا تستمد كل قوانينها .

فلو أننا أحصينا ما في الإسلام من تشريعات فردية أو اجتماعية ، اقتصادية أو جنائية ، سياسة أو دولية ، لما وجدنا فيها إلا تفصيلاً دقيقاً ، وتطبيقاً أميناً لهذا الدستور الأعلى ، سارية في آحادها ومجموعاتها من أَلِفِها إلى يائها .

فمن دستور الأخوة الإنسانية إنبثق القانون الذي محا به الإسلام آثار العصبيات وألغى به الفوارق في الأنساب والأجناس والألوان "ألا إن ربكم واحد..ألا إن أباكم واحد .. كلكم لآدم وآدم من تراب .. ألا لا فضل لعربى على عجمي ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى..." [2] ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾..! [3] .

---

(١) سورة النساء: الآية رقم ١

(٢) جزء من خطاب الرسول ﷺ في حجة الوداع .

راجع البيان والتبيين ٣١/٢ ، والعقد الفريد ١٣/٢ ، واعجاز القرآن ص١١ ، وشرح ابن أبي حديد ٤١/١ ، وتاريخ الطبري ١٦٨/٣ ، والكامل لابن الأثير ١٤٦/٢ ، وسيرة ابن هشام ٢٩/٢ ، وجمهرة خطب العرب ١٥٨/١٥٥/١ ، وقطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام وعبد السلام سرحان .

(٣) سورة الحجرات : الآية رقم ١٣ .

ومن دستور الأخوة الإنسانية نبع قانون إحترام العقائد والشعائر وإطلاق حرية التفكير والتعبير:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] .

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾[2] .

ومن هذا الدستور إنبجس قانون العدل السابغ الذي يستوى في حكمه البعيد والقريب والعدو والصديق.

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[3] .

ومن دستور الأخوة الإنسانية إقتبس قانون تقديس الأمانات ووجوب أدائها حتى إلى الخارجين عن الوطن والجنس والدين :

﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

ومن دستور الأخوة الإنسانية إستمد قانون حماية الأعداء اللاجئين إلى جوارنا:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾[5] .

ومن دستور الأخوة الإنسانية إشتق قانون الوفاء لخصومنا بعهودهم ومواثيقهم:

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾[6] .

ومن دستور الأخوة الإنسانية تولد قانون التساوي في الحرمات .

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾[7].

ومن دستور الأخوة الإنسانية نشأت مسئولية الدولة عن رعاية المواطنين وتأمين

---

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٥٦ .

(٢) سورة الزمر : الآية رقم ١٤ .

(٣) سورة المائدة : الآية رقم ٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية رقم ٧٦ .

(٥) سورة التوبة : الآية رقم ٦ .

(٦) سورة النحل : الآية رقم ٩٢ .

(٧) سورة المائدة : الآية رقم ٣٢ .

أرواحهم وأموالهم "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" .

ومن دستور الأخوة الإنسانية تفرع قانون المواساة للمعوزين ومشاطرتهم للأغنياء في ثروتهم :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[1] .

بل مشاطرتهم للدولة في مالها:

﴿ كَيْلا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾[2] .

في وسط هذا الفردوس من الأخوة الإنسانية تنبت شجرة طيبة مباركة من الأخوة الإسلامية وهي أخوة لا تنقض الأخوة الأولى ولا تناقضها بل إنها تنضم إليها وتضاعفها فليس التفاوت بينهما تفاوت ما بين العدو والصديق ، أو ما بين البعيد والقريب ، بل تزايد ما بين القريب ، والأقرب ، أو الأخ الشقيق والأخ لأب.

أيها الأخوة المؤمنون ، تحية يوم دخلتم في حرمات الصوم بعزيمة الصابرين ، وتحية يوم خرجتم منها بنجاح الظافرين.

أما بعد :

فهل تأذنون لي أيها الأخوة أن أذكركم بشئ من مطالب الإسلام في هذا اليوم وشيء من الأهداف التي يرمي إليها من وراء تلك المطالب .

وهل يأذن القائمون على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الإسلامية أن أذكرهم بشيء من واجبهم في القيام على هذه المطالب وفي تحقيق هذه الأهداف؟

أما أنتم أيها الإخوة فسأحدثكم قبل كل شيء عن هذا المعنى الذي يخالج صدورنا اليوم ، وقد عدنا إلى الإستمتاع الحلال بحرياتنا الطبيعية ، بعد أن أتممنا رحلة الصوم في جد وعزيمة ، وفي صدق وأمانة.هذا الإبتهاج والإغتباط لن أحدثكم عنه باعتباره شعوراً فطرياً ، ومعنى عاديا . ولكني أحدثكم عن نظرة الإسلام إليه ، وعن الأسلوب الذي إختاره لنا في التعبير عنه . ذلك أن الإسلام لم

---

(١) سورة الذاريات : الآية رقم ١٩ .

(٢) سورة الحشر : الآية رقم ٧ .

يشأ أن يبقى هذا الفرح في صدورنا شعوراً منزوياً منطوياً ، ولا أن يتمثل في مظهر تافه خافت ، بل طلب إلينا أن نعلن هذا الإبتهاج عالياً مدوياً ، وأن نبرزه في صورة حية قوية ولكنه في الوقت نفسه لم يشأ أن ينقلب هذا الإعلان ضرباً من اللهو الفاجر ، أو فناً من العبث العربيد الماجن ، بل أراد أن يتمثل في صورتين كريمتين : صورة روحية نتوجه بها إلى الله ذكراً وشكراً ، وتكبيراً وتحميداً ، وصورة إنسانية نتوجه بها إلى الخلق عطفاً ورحمةً ومعونة وتكرمة .

ولن أطيل حديثي عن الجانب الروحي ، فها نحن أولاء نرى شعائره ظاهرة باهرة في تلك الجموع الحاشدة للصلوات والدعوات نصدع فيها "باسم الله ونعلي فيها كلمة الله"ولكنى أريد أن أحدثكم عن الجانب الإنساني الذي هو في حقيقة الأمر أكد الجانبين ، وأوجبهما في نظر الإسلام ، وأعمقها أثراً في حياة الأمة "الإسلامية" ذلك هو نظام الصدقات والزكوات الذي كتبه الإسلام في نهاية رمضان ، وإنه لتشريعٌ فذ في بابه ، لا أقول إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب ، بل أقول إنه لا نظير له في التشريعات الإسلامية نفسها ، ذلك أن الزكاة في العادة إنما تفرض على الأغنياء من فضول أموالهم ، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء ، يواسى بها الغني والفقير، ويواسي بها الفقير من هو أفقر منه ، فكما كانت ضريبة الصبر والزهد في رمضان فرضا على الجميع ، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنظم الجميع .

﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾[1] .

هكذا كما يتساوى المسلمون من الجوع والعطش ، يجب أن نتساوى اليوم كلنا في الشبع والرى .. وهذا هو الشكر العملي وما كانت صلاة العيد وتكبيراته إلا درباً من الشكر القوي .

فهل تعلمون أن الله لا يستمع إلى قول إلا إذا كان يصدقه العمل ؟ هل تعلمون أن الكَلِم الطيب حين يحاول الصعود إلى السماء يتوقف في أثناء الطريق ، انتظاراً

---

(١) سورة الطلاق : الآية رقم ٧ .

لرفده من العمل الصالح ، فإن لم يصل إليه هذا الرفد رد على صاحبه ، وإن وصل إليه رفعه حتى يتم معراجه إلى الملأ الأعلى ؟

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾(١) .

أيها الأخوة المؤمنون :

إني أدعوكم إلى التفكير ملياً في سر هذا التشريع ، لتعلموا أنه تشريع مثالي ، يخلق المجتمع المثالي . أنظر إلى هذه التربية العملية على الوحدة والمساواة مرتين . تتنازل الأمة كلها جملة واحدة للتَذُوق مع المحرومين طعم العوز والحرمان ، ثم تصعد الأمة كلها آخذاً بعضها بأيدي بعض لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان . وتتذوق مع المتذوقين طعم الإرتقاء الذي يليق بالإنسان. وبهذا وحده يكون يوم العيد ، يوم بهجة وسرور . فهل أعيادنا حقاً أعياد بهجة وسرور؟

كيف يكون اليوم بهجة وسروراً ، لمن تقذى عينه بمناظر البؤساء ويتأذى مسمعه بسؤال السائلين ، ويتفطر قلبه بشكوى السائلين ؟ كلا إن الإسلام يطالبنا ألا نسمع اليوم شاكياً ولا باكياً ، ولا نرى جائعاً ولا عارياً . إنه يقول لنا : لا تطلع عليكم شمس هذا اليوم وفي بيت من البيوت جائع أو عريان . وفي طريق من الطرق سائل أو محروم ، يجب أن تملأ الدنيا البهجة كل النفوس وتبتسم الابتسامة على كل الوجوه ، يجب أن تشعر الأمة كلها في هذا اليوم بعزة الاستغناء ، وأن يمحو من بينها ذُل السؤال .

هذه هي تعاليم الإسلام في نصها وروحها. وإنها لتجربة لها ما بعدها.

والآن أوجه كلمتي إلى القائمين على شئون المجتمع في مختلف الأقطار الحكومية. ماذا صنعنا في تحقيق هذه المثل العليا : إلى متى ندع هؤلاء البائسين والمتبائسين في يوم العيد ، يطرقون الأهلين في منازلهم ، ويزاحمون المارة في طريقهم ، ويرهقون المصلين على أبواب المساجد؟ إنها لوصمة في جبين المجتمعات الإسلامية ، وإنها في يوم العيد لأكبر عاراً وشناراً .

---

(١) سورة فاطر : الآية رقم ١٠ .

لقد رسم الإسلام لنا طريق العزة والكرامة . فهل من وسيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمه ؟ الكلمة الآن لجماعات البر في الإسلام ، ولسائر منظماته وحكوماته ، أن تبذل جُهداً في تحقيق هذه الغاية ..

والسلام على من إتبع الهدى،،،

٤- فاكهة المجالس [١]

الغيبـة

فاكهة محبوبة شهية لولا أنهـا مسـمومة - ونغمـة مطربـة شـجية لكنهـا خداعـة مشنومة .

تلك هي فاكهـة المجـالس السـامرة ، لا يشـبع طاعمهـا ، ونغمـة أحاديثهـا السـاخرة، لا يمـل سـامعها . ولكـم سـألت نفسـي عـن مجلس لا تقـدم فيـه هـذه الفاكهة، ولا يسمع فيه هذا النغم ... ولقد طال انتظار الجواب ،حتى ظننت الأمـر مرضاً وبائياً قد اندلع لهيبه في كل مكان ، فمن لم تصبه ناره أصابه دخانه ، ليتلقاه سمعه ، إن لم يتلقف لسانه .

بل كدت أظن أن هذا الأمر وليد فطرة البشر ، أو ربيب حيـاة المجتمـع ، وأنـه ما دامت الشكوى منه متصلة في كـل بيئة وعصـر فـلا طـب لدائـه ، ولا أمـل فـي شفائه .!

ولكنـي سـمعت اللـه يصـف المؤمنيـن المفلحيـن ﴿ وَالَّذِيـنَ هُـمْ عَـنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُونَ ﴾[٢] ويصف عباد الرحمن ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾[٣] فقلت:

لا شك أن في الناس بقية من الخير ، ثم نظرت إلى الجيل الأول من سلف هذه الأمة الذين أدبهم محمد ﷺ بأدب القرآن ، فرأيتهـم قـد بلغـوا مـن طهـر الحديـث وعفـة القـول أن الكلمـة الواحـدة مـن السـخرية كـانوا يعدونهـا كـأكبر الأعمـال الفـاجرة، ويـرون أنهـا لـو مزجـت بمـاء البحـر لمزجتـه .. وهكـذا ازددت إيمانـاً بجوهرة هـذه النفـس الإنسـانية ، ومـا فيهـا مـن عنـاصر نبيلـة ، وطاقـات كامنـة ، وتراءت لي الآفاق العليا التي تستطيع أن تسمو إليه هذه البشرية الحائرة لو تحقـق

---

(١) أذيع في ١٩٥٤/٥/١٦ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية رقم ٣ .

(٣) سورة الفرقان : الآية رقم ٧٢ .

لها شرطان إثنان . لا ثالث لهما : قيادة رشيدة توجهها الوجهة السليمة . واستجابة صادقة تمتد فيها الأيدي لمصافحة تلك اليد البرة الرحيمة ، فمتى تجاوبت هكذا نفسية الداعي والمدعو ، ومتى منح الطبيب مريضه نصحاً وشفقة ، ومنح المريض طبيبه طاعة وثقة ، فهنالك تلتقي الكهرباء الموجبة والسالبة ، فيتولد من بينهما ما شاء الله من حركة وحياة ، وما شاء الله بعد ذلك من وثبات فسيحات نحو المعالي والأمجاد.

وهنا أخذت أتساءل عن الأسلوب الحكيم الذي إتخذه طبيب النفوس الأعظم، ليطهر نفوس المؤمنين ومجالسهم من هذا الإثم ، فوجدته قد سلك إلى ذلك مسالك عدة :

دعاهم باسم الحجة والبرهان ؛ ثم دعاهم باسم الإيمان ؛ ثم دعاهم باسم الحس والوجدان .

١- دعاهم باسم الحجة والبرهان :

(أيها السامرون الساخرون ، الذين نصبوا أنفسهم حكماً فيما بينهم وبين الناس: فلأنفسهم أبداً الرضا والثناء والحمد ، ولغيرهم أبداً السخط والهجاء والذم ، هل أعددتم أنفسكم حقاً لمنصب هذا الحكم ؟ هل أحطتم علماً بما فيه تحكمون ؟ إنكم تعرفون من شؤون الناس جانباً ويفوتكم منها جوانب ، وانكم ترضون من أنفسكم لمحات من الخير ، وتنسون فيها كثيراً من المعايب . فهلا بدأتم بالحكم على أنفسكم قبل أن تحكموا على غيركم ! وهلا شغلتكم عيوبكم عن عيوب إخوانكم ! وهل آمنتم أن ينقلب الميزان عند الله ، فيكون الحكم عليكم لا لكم ؟ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجرات : الآية رقم ١١ .

٢- ثم دعاهم باسم الإيمان :

أيها الهمازون اللمازون ، الغيابون العيابون إنكم لا تدرون كنه ما تفعلون ، ولو فكرتم قليلاً لعرفتم أنكم لا تعيبون إخوانكم،ولكن تسبون ربكم... نعم ان أكثر ما تتفكهون به من عيوب الناس هي عيوب لا ذنب لهم فيها : عيوب ألوانهم ، عاهات أبدانهم ، مظاهر فقرهم ورقة حالهم ، خمول أنسابهم ، مهنة آبائهم وأمهاتهم ، سوء أسمائهم وألقابهم ... ألم تعلموا أن الله هو الذي أعطى كل شئ خلقه ، وركبه في الصورة التي اختارها له ، وإنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقبضه عمن يشاء ، وهو الذي قسم معيشة الناس ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وهو الذي أخرج الناس من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، فلم يكن لأحد منهم الخيرة في نبل مولده أو خسته ، وفي شرف بيئته أو ضِعتها .. فمن تعيبون إذاً ؟ ألستم تعيبون الرحمن في صنعته ؟ وتتعقبون حكمه في تدبيره وأسلوب قسمته ؟ أكفر إذاً بعد إيمان ؟ أعودة إلى الجاهلية بعد أن شرفتم بنعمة الإسلام ؟ ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] .

٣- وأخيراً دعاهم باسم الحس والوجدان المغروس في فطرة كل إنسان:

وها هنا كشف عن الأبصار غطاءها ، وأزاح عن الحقائق نقابها ، وأخرج جسم الجريمة ماثلاً فى سَوءةٍ بادية ، تقذي بها العيون ، وريح منتنة ، تزكم منها الأنوف، وطعم كريه تعافه الأذواق تغفي من النفوس .

نعم من لم يعرف كنه جريمة الغيبة ، ولا حقيقة مرتكبيها ، فلينظر إليها وإليهم في مرآة القرآن ، هنالك يرى ، ويا لهول ما يرى : يرى خواناً ممدوداً قد ألقيت عليه فريسة من البشر ؟ ويرى حول الخوان شرذمة جلودها جلود البشر ، وقلوبها

---

(١) سورة الحجرات : الآية رقم ١١ .

قلوب النمر ، وقد جعلوا ينالون من هذه الفريسة ، لا رمياً بالسهام والنبال ، ولا طعناً بالخناجر والنصال ، ولكن قضماً بالأسنان ، ولعقاً باللسان فعل الضواري بالرمم .. أمن البشر تراهم إذن أم من فصيلة أخرى تأكل لحوم البشر ؟ فلو أنهم لقوا فريستهم وجهاً لوجه ، ونبذوا إليها على سواء ، لقلنا :

ان فيهم بقية من شهامة ، ولكنهم لقوها مجردة من كل سلاح ، عاجزة عن كل دفاع، فأتوها من قبل ظهرها، في ساعة غفلتها، بل في وقت موتها ، فأقبلوا عليها نهشاً ونهباً ومصاً وعرقاً ، هل رأيت أفجر وأغدر ؟ أم هل رأيت أرذل وأنذل ؟ وما ظنك بعد هذا كله لو كان المأكول أخاً للآكلين ، أخاً في أسرة النسب ، أو أخاً في أسرة الدين ؟

تلك هي جريمة الغيبة كما صورها القرآن في كلماتٍ بليغة خالدة ﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾[1] .

أيها الصائمون . لئن كانت هذه طعمة خبيثة ، وفاحشة شنيعة في كل زمان ، لهي في زمن الصوم أخبث وأفحش وأشنع ، إنها تكذب الصوم وتنقضه ، وتحبطه وتبطله ، أصوم عما أحل الله ، وأفطر على ما حرمَ الله ؟

أيها الصائمون ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) سورة الحجرات : الآية رقم ١٢ .

(٢) سورة النور : الآية رقم ١٧ .

٥- للصائم فرحتان[1]

وتنطوي صحيفة رمضان ، وتنفض سوق كانت عامرة ، ربح فيها من ربح ، وخسر من خسر ، وحرم من حرم ، على تفاوت كبير في درجات الربح أو الخسر أو الحرمان.

وتعود الحياة الرتيبة الأولى ، فلا حرج اليوم على أحد أن يستمع في أى ساعة شاء من ليل أو نهار بالحلال الطيب من متع الحياة .

وترى الصائمين والمفطرين اليوم فتحسبهم قد أصبحوا على قدم المساواة .

ولكن هل هم في الحقيقة سواء ؟

فلنراجع معهم حسابهم !

وقبل أن نشير إلى بعض المعاني الإيجابيــة التي أفادها الصائمون وحرم منها المفطرون ، ينبغي أن ننبه إلى ناحية سلبية ، ولكنها أساسية ، من حق الصائمين أن يقيدوا بها في رصيدهم . تلك هي السلامة والنجاة من المخاوف الوهمية ، التي كانوا بها يخوفون فقد قيل لهم عند إقبال رمضان :

إنكم سوف تموتون جوعا أو تهلكون عطشا أو تنهكون مرضاً . فانظر إليهم اليوم واملأ ناظريك .

إنهم لم يموتوا جوعاً ، ولم يهلكوا عطشاً ، ولم ينهكوا مرضاً ، كما كان يتوقع الشامتون بهم .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾[2] إنهم لمغامرون ، وإنهم لن يخرجوا من هذه المغامرة سالمين.

قالوا فلنجانب إذاً طريقهم ، ولا نتبع سبيلهم . لكن أشد منهم حرصاً على حياتنا ، وعلى عافيتنا ، فأي شيء أثمن في الدنيا من الحياة ؟ وأى شئ أثمن في الحياة من العافية ؟ . هكذا كان الشيطان يخوف بالأمس أولياءه ، ودفعهم إلى السخرية من أعدائه .

---

(١) أذيع في صباح ٢ شوال سنة ١٣٧٦هـ / ٢ مايو ١٩٥٧م .

(٢) سورة المطففين : الآيات رقم ٢٩ - ٣٢ .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾[1] ومن سخريتهم يسخرون. لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة سالمين ، فخيبوا شماتة الشامتين ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء .

هذه واحدة هم جديرون أن يفرحوا بها .

تلك كانت نعمة السلامة . فانظر بعدها إلى نعمة الغنيمة :

لقد خرج المؤمنون من هذه التجربة أصلب عزماً ، وأقوى قلباً ، وأصدق تجربة لمشاكل الحياة ، وأكبر أملاً في اقتحام صعابها .

لقد غالبتهم المادة فغلبوها ، وأرادت الشهوات أن تستعبدهم فاستعبدوها ، فأي شئ اليوم يقف أمام عزيمتهم ، وأي شيء بعد اليوم يخفض من عالي همتهم ؟

إن شيخوخة الشيوخ منهم لتتحدى جلادة الشبيبة في فئة من الشباب فروا من الميدان وهربوا من هذه التجربة اليسيرة هروب الجبان .

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم ، ولم يذق لذة هذا الانتصار وما أدراك ما هذا الانتصار؟ إنه انتصار يسمو على كل إنتصار .

أرأيتك حين تنتصر على عدوك المجهز بالسلاح والعتاد ، المؤيد بالحلفاء والأنصار . ألا تراه نصراً جديراً بالفخر ، إنه مع ذلك إنتصار رخيص بالقياس إلى هذا الإنتصار. ذلك أنك حين تصارع عدوك تصارعه وقد وجدت له كل قوتك . عقلك وقلبك ، وشهوتك وغضبك ، وحسك ووجدانك . أما حين تصارع نفسك التي بين جنبيك فإن أكثر هذه القوى تخذلك ، وتتخلى عنك ، وتتركك وحيداً في الميدان ليس معك إلا دينك وضميرك ، فإذا انتصرت والحالة هذه .. فقد برهنت على أن فيك عنصراً سماوياً نبيلاً وأن فيك جندياً من جند الله ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[2] .

نعم ليس حياة الصوم دائما حياة صراع وكفاح ، عند الوادعين القادرين تجربة

---

(١) سورة المطففين : الآية رقم ٣٤ .

(٢) سورة الروم : الآيتان رقم ٤، ٥ .

محتملة ، ولكنها مسؤلية ملتزمة ، فمن لم يشعر فيها بلذة الانتصار على الهوى شعر فيها بلذائذ أخرى ، ذلك أنه كلما قطع مرحلة من صومه وجد غبطة بنجاحه وتوفيقه في تلك المرحلة ، وأحس في نفسه خفة ونشاطاً ورغبة في متاعب اليسر والعمل ... حتى إذا ألقى العصا ، واستقر به النوم في ختام عمله ، بعد إتمام واجبه ، وجد هنالك من ثلج الصدر ، وطيب النفس وقرة العين ، ما لم يجد بعضه القاعدون الوادعون .

مسكين من لم يجرب تجربة الصوم ، إنه محروم من هذه اللذائذ كلها ، إنه محروم حتى من تذوق المتعة الحسية ، إن كان لا يدرك إلا المتعة الحسية ، أما درى أنه كلما اشتدت المخمصة كان الطعام أهنأ وأمرأ ، وكلما إشتد الظمأ كان الشراب أنقع وأنفع ؟

هكذا يجتمع للصائم عند فطره متعة بالسلامة والعافية ، ومتعة بالانتصار على الهوى ، ومتعة بالتوفيق لإتمام العمل ، ومتعة بالري على الظمأ ، والنيل بعد انتظار وطلب .. كل هذا ، وأمثال هذا ، إنما يمثل إحدى الفرحتين ، بل أدنى الفرحتين، أما الفرحة الكبرى المدخرة له فإنه لا يحيط بها وصف الواصفين ، ولا يقدر قدرها إلا رب العالمين .

في الحديث الصحيح القدسي : يقول الله تبارك وتعالى : "كل عمل بن آدم يضاعف الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وشرابه من أجلي . للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه" [1] .

نقول : أما الفرحة الأولى فقد فزنا بها . وأما الفرحة الأخرى فإنا لها منتظرون. وإنا إلى الله فيها راغبون .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2] .

---

(١) هذه رواية الإمام مسلم ، كتاب الصوم –باب فضل الصيام ، عن أبي هريرة ﷺ .
(٢) سورة يونس : الآية رقم ٥٨ .

الفصل الثالث

ذكريات

١- كتاب الله .
٢- ليلة القدر .
٣- الأعياد الإسلامية .
٤- وداعاً .

كتاب الله

مما لا شك فيه ، أن شهر رمضان ، هو شهر الذكريات ..

في هذا الشهر الكريم غزوة بدر ، التي كانت حداً فاصلاً بين الشرك والإيمان، والضلال والهدى ، والشر والخير ، والباطل والحق .

وفي هذا الشهر فتح مكة ، الذي أتم الله فيه النصر للإيمان والحق ، وأعلن فيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، سياسة الحب والصفاء والسلام .

وفي هذا الشهر الكريم ليلة القدر .. التي هي خير من ألف شهر والتي يتجلى الله فيها على عباده، ليفتح لهم باب رحمته ومغفرته، ومن أجل هذه الذكريات وأعظمها وأسماها، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ففي شهر رمضان.. ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾[1] وليكون دستورا ينظم حياة الناس ، ويتضمن أرقى الأسس للأخلاق، وليس للأخلاق دستوراً أقوم ولا أعظم من القرآن .

ونحن لو أحصينا مبادئ الأخلاق الإجتماعية في القرآن وفي غير القرآن ، لوجدنا أن مَلاكها وقوامها مبدآن : مبدأ العدل ومبدأ الإحسان .

ترى أي المبدأين أحق باسم الفضيلة ؟ وأيهما أرشد في سياسة المجتمع ؟

الحق أن لكل منافعه وأضراره ، ولكل مؤيدوه وأنصاره . حتى زعم أكثر الباحثين أن شريعتين من شرائع السماء اقتسمتا هاتين الخطتين بينهما قسمة فاصلة فأخذت شريعة التوراة بما هو أقوى وأحزم وأخذت شريعة الإنجيل بما هو أرفق وأرحم .

ومهما يكن من أمر في دقة هذا التقسيم أو عدم دقته ، فإن القرآن الحكيم هو الجامع لما تفرق في غيره من الفضائل ، والمفصل لما أجمل قبله من الآداب

---

(١) سورة البقرة : جزء من الآية رقم ١٨٥ .

والمكارم ، قد رأيناه ينظم المبدأين جميعا في سلك واحد ، ثم رأيناه لا يكتفي بذلك ، بل جعل يمحو ما بينهما من تعارض وتنافس ، فرسم لكل واحد منهما مجال عمله ، وحدود اختصاصه .

أما العدل فقد جعله نبراساً للقاضي والحاكم ، ولكل راع في رعيته ، ولكل طرف ثالث يتوسط للفصل بين طرفين . نعم ذلك مجال لا فضيلة فيه إلا للعدل ولا مكان فيه لشيء من الإيثار والفضل فإن التفضل والإيثار هنا رذيلة صارخة وجور مذموم ، لا جرم كان أكثر ما ورد في القرآن الحكيم ، من مدح للعدل وثناء عليه ، أو أمر به ، وتحريض عليه ، إنما هو في معرض الحكم وفصل القضاء: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[1] ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[2] ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾[3] ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾[4] .

وأما الإيثار والبر ، والرحمة والعفو ، فقد رسمها القرآن خطة يسير عليها الخليط والبشير ، والقرين والعميل ، وكل من كان أحد طرفين في معاملة ، يمارس فيها حقه ، ويتصرف في شئنه . هذا هو المجال الذي لا فضيلة فيه إلا للإيثار والفضل . إن العدل ها هنا لا يمثل من درجات القبول إلا حدها الأدنى الذي من نزل عنه فقد وقع في الإثم المحرم. هكذا نسمع القرآن يقول : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾[5] فرسم بذلك طريق الفضيلة ثم يقول "أو ردوها" فأشار بهذا إلى المنزلة الدنيا التي من تخلف عنها فقد سلك سبيل الجفوة والغلظة المحرمة .

وهكذا تتبعنا وصايا القرآن الحكيم في سائر المعاملات ، فوجدناه يجعل

---

(١) سورة النساء : الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة ص : الآية رقم ٢٦ .

(٣) سورة الحجرات : الآية رقم ٩ .

(٤) سورة المائدة : الآية رقم ٤٢ .

(٥) سورة النساء : الآية رقم ٨٦ .

التنازل عن الحق ، والتصدق بالدين ، والعفو عن الظلم ، هي الفضيلة الفذة التي تستحق حمده وثناءه..بينما وجدناه إذا ذكر المعادلة في الحقوق ، والمحاسبة فيها بالحساب الدقيق ، لا يتبعها حرفاً واحداً من المدح والثناء .

هذه الحدود الفاصلة التي رسمها القرآن - فيما نرى - بين مجال العدل والمساواة ، وبين مجال الفضل والمواساة ، نجدها بارزة جلية ، في قضية قرآنية معينة ، وضعها القرآن في يد الحاكم ، فأمره فيها بالشدة والعدل ، ثم وضعها القرآن في يد صاحب الحق فأمره فيها بالرحمة والفضل . تلك هي قضية رمي المحصنات المؤمنات ، فقد رأيناه يأمر الحاكم أن يأخذ الأمر فيها بالحزم والقوة، وأن يجلد القاذف ثمانين جلدة ، ثم رأيناه يأمر صاحب الحق أن يتناولها بالرفق والرحمة : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] .

أما بعد فها هنا سؤالان مهمان :

تقرير السؤال الأول :

إنه إذا صح أن أكثر ما ورد في القرآن من مدح للعدل أو أمر به إنما هو في شأن الحكم بين الناس ، فمن الصحيح أيضاً أن في القرآن نصوصاً أخرى تأمر بالعدل بإطلاق ، غير مقيد بحال الحكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾[2] ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[3] فلماذا لا نأخذها على إطلاقها ، فيكون العدل فضيلة في معاملة المرء لغيره ، كما هو فضيلة في حكمه بين الآخرين ؛ والجواب أن هذه النصوص حتى لو أخذت على إطلاقها فإن العدل الذي تطالبنا به في جانب المعاملة لا بد أن يراد منه معناه الإيجابي ، وهو أداء الحق لأهله كاملاً غير منقوص ؛ ولا يمكن أن يراد معناه السلبي ، وهو عدم الزيادة عليه تفضلاً وتكرماً

(١) سورة النور : الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة النحل : الآية رقم ٩٠ .

(٣) سورة المائدة : الآية رقم ٨ .

لأنه لو أريد به معناه السلبي وهو عدم الزيادة عليه تفضلاً وتكرماً لأنه لـو أريـد بـه منع الزيادة لكان الأمر بالعدل مبطلاً وناقضاً للأمـر بالإحسـان ، إذ كيـف يحضـك القرآن على أخذ حقك كله ، وهو في الوقت نفسه يأمرك بالتنازل عنه ، والتصـدق به ، والمسامحة فيه ؟ . فالعدل في المعاملة إن طلب ليس معناه المسـاواة بيـن مـا تأخذ وما تعطي ، وإنما هو المساواة بين ما يجب أن تعطى وبين ما تعطى بـالفعل ، وذلك بألا تبخس من الحق الذي عليك شيئاً ، أمـا الزيـادة عليـه كرمـا فليـس فـي حقيقة العدل المطلوب ما يمنعها أو ينفعها .

تقرير السؤال الثاني :

إننـا لـو أخذنـا بمبـدأ العفـو والرحمـة ، والتسـامح والإغضـاء ، باعتبـاره هـو الفضيلة.. القرآنية الفذة ، واتخذنا هذا المبدأ قاعدة كلية في معاملة الناس بعضهـم لبعض ، سوف يفضي بنا الأمر حتماً إلى رفـع العقوبـات والجـزاءات مـن بينهـم .. فهل هذه حقاً سياسة رشيدة يصلح عليها أمر المجتمع ؟ أم هي على العكس أدنـى إلـى إفسـاد الجماعـة منهـا إلـى إصلاحهـا ؟؟ تصـور مجتمعاً تضيـع فيـه الحقــوق والواجبات، وترتكب فيـه المـآثم والمظـالم فيتسـتر أفـراده بعضهـم علـى بعـض ، ويعفوا بعضهم على بعض ، أفليست هذه هي الفوضـى بعينهـا ؟ أليـس هـذا إغـراءاً لأهل البغي والفجور ، وتحريضاً لهم على نشر الفساد فـي الأرض ؟ فـإن صلحـت هذه السياسة الناعمة في جماعـة محصـورة ، وفـي فـترة محـدودة ، فكيـف تُتخـذ شريعة عالمية دائمة ؟. وكيف يكون هذا حكماً سماوياً قدسياً..؟

مهلاً أيها السائل ! لقد جاوزت المدى في وصفك ، حتـى قلبـت المجـال غـير المحال . حاش لحكمة القرآن أن تشجع العفـو عـن الجريمـة الباطشـة ، الشرسـة العارمة ، التي لا يزيدها الرفق والإغضاء إلا امتداداً وطغيانـاً ... تلـك جنايـة ليـس العفـو عنهـا مـن حقـي ولا مـن حقـك ، لأن ضررهـا لا يقتصـر علــى شـخصي أو شخصك ، بل يوشك داؤها لو سرى في جسـم المجتمـع أن يزلـزل كيانـه ، وأن يُقوض أركانه . فالسكوت عليها جريمة مثلها ، والانتقـام منهـا ليـس انتقامـاً لحـظ النفس ولكنه انتقام لحق الله ولحق الجماعة كلها .

ليس المجال الذي وصفته إذاً مجال معاملة أنت فيها أحد الطرفين ، وإنما هو مجال خلافة ووكالة ، أنت فيها قوام على أمر الله تحمي حرماته أن يعتدى عليها. هذا هو مجال التناهي عن المنكر ...

هذا هو مقام التواصي بالحق ... هذا هو موقف دفع الفساد الذي قال الله في شأنه:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[1] إنما العفو عن أذى ينالك في شخصك ، لا تخشى انتشاره واستمراره . إنما العفو عن ذنب يقع زلة وفلتة ، فيكون الإغضاء عنه هو العلاج الناجح ، والطب النافع ، كمثل شرارة سقطت على الماء فعادت برداً وسلاماً .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٥ .

(٢) سورة فصلت : الآية رقم ٣٤ .

ليلة القدر

قال التلميذ لأستاذه : نبئني أيها المربي الفاضل ما سر هذا التكريم البليغ ، وهذه الحفاوة العظمى التي يختص بها شهر رمضان من بين شهور العام ؟

قال المربى : لأنه كما قال الله : ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ ﴾[1] .

قال الطالب : ألم ينزل شيء من القرآن قط في غير رمضان ؟

قال المربى: بلا في كل الشهور قد نزل قرآن ولكن أول شذرة قرآنية هبط بها جبريل على قلب محمد ﷺ كان في شهر رمضان حينما كان محمد ﷺ يعبد ربه في غار حراء.

فكانت هذه نقطة تحول بين عهدين ، كانت أول قطرة من غيث الرحمة الإلهية التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، من الضلالة إلى الهدى ، من الشقوة إلى السعادة ، ثم تتابع الغيث في مدى ثلاث وعشرين سنة حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته بإتمام هذا الذكر الحكيم ..

كانت الإيجاءة القرآنية الأولى إذاً هي باكورة هذه النعمة العظمى ، وارتبطت ذكراها بتاريخ نزولها . فكلما جاء رمضان ذكرنا هذه الهدية ، وذكرنا من أهداها، وكان حقاً علينا شكره عليها ، وتجديد ولاءنا له ولها ..

قال الطالب : وهل استغرقت هذه المنزلة الأولى من الوحي القرآني طوال شهر رمضان الأول ؟

قال المربى : كلا ، بل كانت في لمحة خاطفة انبثق عنها فجر ليلة من لياليه .

قال الطالب : ما بالنا إذا نحتفل بالشهر كله؟ ألم يكن بحسبنا أن نحتفل بهذه الليلة الفذة وحدها؟

قال المربى: أتحسب أن النور الذي إنبثق في تلك الليلة كان هكذا شعاعاً ضئيلاً لا يضئ إلا قدر وضعه؟ لقد كان له إشعاع غامر لا يسعه الشهر ، بل يفيض

---

(١) سورة البقرة : الآية رقم ١٨٥ .

على الدهر . لقد كانت ساعة سعيدة سعدت بجوارها ألف ساعة . وكان أقل ما يقضى به واجب الوفاء لرب هذه النعمة ، وهو أن نشتغل بشكره في مدى ذلك الشهر .

قال الطالب : هذا حسن . ولكننا سمعنا الله ينوه في كتابه بذكر شهر رمضان، فإذا كانت سائر ليالي رمضان إنما نالت هذا الشرف لجوارها تلك الليلة التي نزل فيها القرآن ، ألم تكن هذه الليلة نفسها أحق أن ينوه القرآن بها ، مثل ما نوه بالشهر كله أو أعظمه ؟

قال المربي زادك الله يا بني فقهاً وفهماً ... لقد كان الأمر كما قدرت.. لقد نوه الله في كتابه في شهر رمضان مرة واحدة ، ونوه بالليلة نفسها مرتين ، وسماها بإسمين كريمين : سماها الليلة المباركة فقال : ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[1] وسماها ﴿ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ذات القدر والشأن العظيم فقال ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[2] وأنزل في شأنها هذه السورة الكاملة المسماة باسمها .

قال الطالب : لقد كنت تحدثنا أن رمضان كله ذو شأن وقدر ، وأن العمل فيه عظيم الأثر ، مضاعف الأجر ، فإذا كانت كل ليالي رمضان ذات قدر فما نرى ، إذاً لليلة التي نزل فيها القرآن مزيد فضل بهذه التسمية على سائر الليالي .

قال المربي : ما أراك يا بني إلا قد خذلت الآن ذاكرتك اللغوية .

أنسيت الفرق بين أن يكون الشيء ذا قدر ، ذا قدر ما ، وبين أن يكون هو صاحب القدر ، كأن ما عداه بالقياس إليه ليس شيئاً مذكورا ؟

قال الطالب : لا تؤاخذني بما نسيت . ولكن هل تأذن لي أن أسأل :إلى أي مدى تصل نسبة هذا الفرق بين قيمة الأعمال في ليلة القدر ، وبين قيمتها في سائر ليالي رمضان ؟

---

(١) سورة الدخان : الآيات رقم ١ – ٣ .

(٢) سورة القدر : الآية رقم ١ .

قال المربي : سأمثل لك ذلك . ألا تعرف أن مضاعفة قيم الأعمال تكون في العادة بالآحاد أو بالعشرات أو بالمئات ؟ فهل تقر عينا إذا قلت لك : إن العمل في ليلة القدر يربو على العمل في ثلاثين ألف ليلةٍ غيرها ؟

قال الطالب : ما عهدناك تغلو وتسرف في تقدير الأمور .. ثلاثون ألف ليلة ؟ من أين لك هذا ؟

قال المربي : من كتاب الله تعالى ، اقرأ إن شئت : " ليلة القدر خير.... "لم يقل من ألف ليلة ، ولكن قال : ﴿ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[1] .

قال الطالب : تبارك الذي لا تنفذ خزائن نعمته .. نبأني إذاً عن هذا الفضل العظيم لا يزال في متناول العاملين المخلصين منا في كل رمضان ؟ أليس ذلك كان خصوصية لليلة المعينة التي نزل فيها القرآن أول مرة ؟

قال المربي : يا بني ، إنه لو كان الأمر كما زعمت في شأن هذه الليلة أقول : لو كانت فضيلتها إنما هي لليلة التي نزل فيها القرآن أول مرة إذاً لتحدث القرآن عنها كما يتحدث عن حادث تاريخي مضى أو انقضى وإذاً لقال إنها كانت خيراً ، وكانت سلاماً ، وإنها تنزلت فيها الملائكة ، ولكنه يتحدث عنها حديثه عن شئ متكرر مستمر ، فيقول : إنها "خير" وإنها "سلام" وإنها ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾[2] فهي إذاً باقية ما بقيت على الأرض طائفة من الأمة مستمسكة بالحق عاملة على ظهور كلمته ، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[3] .. ولقد علمنا أن النبي عليه الصلاة والسلام ، وصحابته رضوان الله عليهم ، كانوا يلتمسونها في رمضان كل عام .

قال الطالب : يلتمسونها .. أليست هي ليلة معينة معروفة في رمضان الأول ، تتكرر في مثل يومها من كل عام ؟ ألسنا متى عرفنا تاريخ النجم الأول من القرآن

---

(١) سورة القدر : الآية رقم ٣ .

(٢) سورة القدر : الآية رقم ٤ .

(٣) سورة الأنفال : الآية رقم ٥٣ .

اتخذناه وقتاً ثابتاً في كل رمضان ؟

قال المربي : إنها ليست دورة فلكية آلية . إنها منحة ربانية يبارك الله بها الليلة التي يشاء إنزال الملائكة والروح فيها. وقد كانت ليلة القدر الأولى وهي باكورة الوحي في اليوم السابع عشر من رمضان فيما رواه المحققون من المؤرخين واعتمده المحققون من المفسرين ، استنباطاً من الآية الكريمة في سورة الأنفال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾[1] فإن يوم التقاء الجمعين وهو يوم بدر – كان في السابع عشر. ولكنها تنقلت بعد ذلك في زمن النبي وأصحابه أنفسهم فكانت في الحادي والعشرين ، وفي السادس والعشرين ، وفي الخامس والعشرين ، وفي السابع والعشرين . وقد أقسم أبي بن كعب ﷺ فيما رواه مسلم أنها في السابع والعشرين يريد والله أعلم في عامه ذاك ، ولكن جمهور العلماء أخذوا به على عمومه .. وأنت أرأيتك لو كانت في يوم معين ثابت في كل عام ، أكنت تقبل على الله يومها وتعرض عنه في سائر الأيام ؟ فما يضيرك يا بني أن تعرض لنفحاتها بإحياء بضع ليال من أواخر هذا الشهر تكثر فيها ذكرك لله ، وبرك بخلق الله ؟ إنها يا بني فرصة ثمينة بالحرص عليها والسعي إليها . وما أحسن قول القائل فيها :

.. إنها ليلة ذات قدر ، أنزل فيها كتاب ذو قدر ، على نبي ذي قدر ، في أمة ذات قدر ، ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾[2] .

كتب الله فيها لنا ولك العافية والأمان والسلام .

---

(١) سورة الأنفال : الآية رقم ٤١ .

(٢) سورة القدر : الآيتان رقم ٤،٥ .

الأعياد الإسلامية(1)

كانت الأمم الماضية تعرف الأعياد لهواً ولعباً وشراباً ، وطرباً وجلبةً وصخباً .

بل إن بعض الأديان القديمة كانت تتخذ أعيادها الدينية من مادة الإباحة المستهترة، والفوضى الخلقية السافرة . ناهيك بأعياد "باكوس" عند قدماء اليونان ، ثم عند الرومان، وهي أعياد كانت تتكرر أكثر من مرة في كل عام ، وكان يفرض فيها على الرجال والنساء أن يخلعوا جلباب العفة والحياء وأن يتحرروا من كل قيود الغيرة والشرف ، وأن يطلقوا العنان لغرائزهم الحيوانية الدنيا لكي تقضي لبانتها علناً جهاراً إرضاء لآلهتهم فيما يزعمون. حتى إن من يأبى أو يتعفف عن المشاركة في هذه الملاهي الداعرة حكم عليها رؤساء الدين أن تدفن حياً في مغارات بعيدة ، وسراديب مجهولة إلى أن يأتيه الموت أو يقضي الله قضاءه فيها ..

وفي الطرف الأقصى المقابل لهذه المادية الجامحة نرى الروحية الزاهدة المنطوية المنزوية ، تكتفي في تجديد ذكرياتها المقدسة إما بترديدها في داخل النفس ، وإما بالتعبير الخافت عنها في زوايا المعابد ، ترتيلاً لبعض دعوات أو أداء لبعض المراسم والإشارات .

ويجئ الإسلام بموازينه العادلة ومعاييره الدقيقة الفاصلة ، فيلقى على فكرة الأعياد ضوءاً جديداً ، يبعد بها عن انحلال المادية وفجورها ، وعن تزمت الروحية وفتورها ، يجمع ما في كلتا النزعتين من خير وسداد ، وينفي ما في كلتيهما من خلل وفساد ، ثم يضيف إليها عناصر صالحة أخرى ويؤلف من جملة ذلك صورة حية قوية جميلة في نطاق من الطهر والكرامة والصون والعفاف .

تلك هي فكرة الأعياد في الإسلام .

فالصبغة الأولى للأعياد الإسلامية صبغة روحية ، لكنه روح غير صامت ولا خافت ، إنه روح صادح متوثب . استمع إلى هذا النشيد القوى الذي يتجاوب صداه في الطرقات على ألسنة الذاهبين إلى صلاة العيد ، أفراداً وجماعات ، وفي

---

(1) أذيع في ١٩٥٤/٥/٣٠م .

المساجد على ألسنة المصلين ، أو المنتظرين لصلاة العيد ، وفي البيوت على ألسنة المصلين عقب صلواتهم المكتوبة في أيام التشريق ، وفي منى عند رمي الجمرات على ألسنة الحجاج لتستمع إلى هذا النشيد . إنه يتفجر من الروح وانطلاقها فرحاً وابتهاجاً بإتمام رحلتها الموفقة ، رحلة الصوم أو رحلة الحج ، ثم استبشاراً وتطلعاً إلى المستقبل بعين الثقة والأمل .

إنه شعار الإنتصار في التجربة الماضية والتصميم على متابعة الإنتصار الروحى في التجارب المقبلة .. "الله أكبر ولله الحمد" .

هذا العنصر الروحي الحماسي يطالبنا الإسلام بأن نبرز جوهره في مظهر من الزينة والجمال وفي جو من المتعة والرفاهية البدنية ، في غير إسراف يشوه كماله ويقلبه إلى ضده .

نعم لقد كانت فريضة التقشف والحرمان ضريبة محترمة في زمن الصوم وزمن الحج ، فإذا جاء يوم العيد فلا تقل قد حُل ما كان مُحَرما ولكن قل :

فقد وجب ما كان محرما وحرم ما كان واجبا نعم لا صوم اليوم ولا حرمان من الطيبات ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[1] ثم لا تقشف ولا حرمان من الطيب والزينة ، فليأخذ كل منا أحسن زينته وليظهر أثر نعمة الله عليه، فهذا يوم إظهار النعم ثم لا تزمت ولا حرمان اليوم من اللعب واللهو البريء المباح، يروى أصحاب السنن عن أنس ﷺ قال : "قد قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا كنا نلعب فيهما في الجاهلية.. فقال قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر.." [2] .

ويروي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل علي النبي ﷺ في يوم عيد وعندي جاريتان تغنيان فلم يقل شيئاً ولكنه اضطجع على الفراش وحول

---

(١) سورة الحاقة : الآية رقم ٢٤ .

(٢) حديث أخرجه الإمام أبو داود ، كتاب الصلاة - باب صلاة العيدين ، المجلد الثاني ص١٧٩ دار القلم ببيروت .

وجهه.. ثم دخل أبو بكر فانتهرني وقال : أبمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال ﷺ : "دعهما يا أبا بكر" إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا قالت عائشة: وكان السودان يلعبون بالدرق والحراب ، فإما سألت النبي وإما قال هو لي: تشتهين تنظرين ، قلت نعم ، فأقامني وراءه ، رأسي عن منكبه ، وخدي على خده ، حتى إذا مللت ، قال حسبك قلت ، نعم [1] .

ولا يفوتني أن أقول في صدد هذا اللعب المشار إليه في حديث عائشة: إنه ليس لهواً سائغاً مرخصاً فيه فحسب ، بل إنه متى صلحت فيه النية كان عملاً يندب إليه الإسلام ، ويحض كما يحض على الرماية والسباحة والعدو وركوب الخيل ، وسائر ضروب الرياضة البدنية النافعة فإنها تكسب صاحبها مضاءاً في العزيمة ومناعة في البدن ، تجعل منه جندياً معداً لحماية الدين والوطن ، فما أحرانا أن نحيي هذه السنن الكريمة في أعيادنا .

هكذا تلتقي في الأعياد الإسلامية روحيتها المنطلقة السامية ، وماديتها النافعة الجميلة ، الطاهرة البريئة . على أن الإسلام لم يكتف في أعياده بهذين العنصرين حتى عززهما بثالث أكد الجميع عنده وأحبها إليه ذلك هو المعنى الاجتماعي الإنساني ، الذي جعل من الأمة جسداً واحداً ، لا بوحدة شعارها وشعوبها فحسب، ولا بمظهر إجتماعها الباهر في شعائر الذكر والصلاة وكفى ، ولا بهذا التلاقي الأليف الودود الباش الباسم الذي ندب إليه كل مسلم يلاقي أخاه في يوم العيد ، ولكن بمعنى أقوى من ذلك كله : بنظام المشاركة الفعلية التي شرعها في ذلك اليوم بين أعضاء الجماعة ترفيهاً عن المعوزين منهم وإغناء لهم عن ذل السؤال يومئذ. تلك هي شريعة الزكاة في عيد الفطر وشريعة الضحية في عيد النحر . ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[3] .

---

(١) حديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب صلاة العيدين – باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد عن عائشة .

(٢) سورة الكوثر : الآية رقم ٢ .

(٣) سورة الأعلى : الآيتان رقم ١٤،١٥ .

أما بعد ..

فقد ناديت كثيراً بقلمي وبلساني وطالبت بوجوب تسليم هذه المبرة الإسلامية التي كثيراً ما يحرم منها مستحقوها وكثيراً ما يتكرر بذلها إلى مستحقيها . لقد ناشدت حكومات الإسلام ومؤسساتها الاجتماعية أن تتولى بنفسها جمع هذه الملايين المبعثرة وتوزيع ما ينبغي توزيعه منها على من يستحق منها ، ثم وضع ما يفضل من حصيلتها في صندوق تدعم به المشروعات الاجتماعية الكبرى. وقد ناشدت أولى الأمر في مصر وغيرها أن يقوموا في أيام الأعياد على الأخص بحملة تطهير تخلى بها الطرقات العامة وأبواب المساجد ، وأبواب البيوت ، من تلك الأيدي الممدودة بالسؤال ، تلك الوصمة التي تشوه جمال العيد ، وتتحدى النظام المثالي الذي وضعه الإسلام للتفادي من هذه المأساة .

ولقد ناشدت من قبل وناديت واليوم أكرر هذا النداء وأجدد هذه الذكرى .. إن الذكرى تنفع المؤمنين ..

وداعاً..

مهلاً مهلاً شهر رمضان ...

ما أعجلك في ارتحالك عنا أيها الضيف الكريم هلاَ أمتعتنا بك فترة أخرى يتدارك فيها المقصرون تقصيرهم . ويزيد فيها المشمرون تشميرهم ؟

ما أسرع ما يطوى العمر وما أعجل ما تنقضي الأيام والليالي ، كأنها أوراق الخريف عصفت بها ريح القدر ، وهل الحياة كلها إلا لحظات محدودة. وأنفاس معدودة ، تغر الناظرين إليها في ساعة إقبالها ، فإذا أدبرت فإنما هي حلم من الأحلام ، وإنما البقاء والدوام لمن له البقاء والدوام ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾[1] . ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[2] .

شهر رمضان ، أين هو شهر رمضان ؟

ألم يكن منذ لحظات بين أيدينا ؟ ألم يكن ملئ أسماعنا ، وملئ أبصارنا ؟ ألم يكن هو حديث منابرنا ، وزينة منائرنا ، وبضاعة أسواقنا ، ومادة موائدنا ، وسمر أنديتنا ، وحياة مساجدنا ؟

فأين هو الآن ؟

ها هو ذا يهز آخر خيط من خيوطه ، لينزعه من أفقنا .

ها هو ذا يكابد آخر نفس من أنفاسه ، ليلفظه أمام أعيننا فلن تكون إلا طرفة عين وإذا مواسم التقوى قد انفضت سوقها ، وإذا بلابل الدوح قد هدأ تغريدها. والى الله المصير .

أي شهر رمضان ..

ما أبعد الشبه بين يوميك : يوم قدومك ، ويوم رحيلك .

لقد كان يوم إقبالك يوماً تفتحت له عيوننا وقلوبنا ، فاستقبلناك بملئ النفس غبطة

---

(١) سورة القصص : الآية رقم ٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : الآية رقم ٢٧ .

واستبشاراً وأملاً : استبشرنا بمودة مجالك الطهور الذي تسبح فيه أرواحنا بعد جفافها وركودها ، واستبشرنا بساعة صلحنا مع ربنا بعد طول إعراضنا وإباقنا ، وكم تمنينا أن نكون أوفياء بحقك ، وكم أملنا أن نكون أقوياء على برك ورفدك .

أما اليوم فإننا نودعك وملء النفس وَجل وخجل ، وإشفاق وقلق : لا ندرى إلى أى مدى كان وفاؤنا بواجب العمل ، وإلى أي مدى كان تحقيقنا لفسيح الأمل.

فليت شعري كيف وجدتنا ؟ وماذا عسى أن تكون حملت معك من ذكرياتنا ؟ هل قبلت أعذار المعتذرين ؟ هل أرضاك صوم الصائمين ؟ هل أعجبك قيام القائمين ؟

ما أكثر الذين اعتذروا إليك بمشاغلهم ومتاعبهم ، وما أكثر الذين تعللوا لك بضعفهم ومرضهم . وما كان الذي بهم والله من مرض الأبدان ، ولا من ضعف وسائل الإمكان ، ولكنه مرض القلوب ، وصغر النفوس ، وخور العزائم . لقد خانتهم رجولتهم فلم يحاولوا أن يقتحموا العقبة ، بل فروا من الميدان قبل الملحمة ، وحكموا على أنفسهم مقدماً قبل التجربة .

فدعهم الآن يقاسوا مرارة الألم ، ويتجرعوا مرارة الندم ، إذا وجدوا إخوانهم الذين قبلوا التجربة قد خرجوا منها بسلام فلم تنقص منهم شيئاً بل زادتهم إيماناً إلى إيمانهم ، وقوة إلى قوتهم وتبين أن تلك المخاوف إنما كانت وهماً من الأوهام ، وخدعة من خدع الشيطان ، يخوف بها الأطفال وأشباه الأطفال .

أي شهر رمضان .. !

قل للذين خدعوا هذه المرة ، لا يخدعوا بمثلها مرة أخرى . وقل لهم وأنت على عتبة باب السفر: من أضاع الفرصة في أيامي ، فليتداركها في أيام أخر . قل لهم إن باب التوبة مفتوح على مصراعيه : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[1] .

"أما بعد – يا شهر الصيام ، فإني أخشى أن تكون حفظت في سجلك عن

---

(١) سورة النساء : الآية رقم ١١٠ .

جمهرة الصائمين القائمين ، أشد وأقسى مما سجلته على كثير من المفطرين المقصرين ، فقديماً قيل : " رب معصية أورثت ذلة وانكساراً ، خير من طاعة أورثت علواً واستكباراً "(1) فهؤلاء المفطرين إذا اعترفوا بذنوبهم وشدوا ما تراخى من عزمهم ، كانوا أحرياء أن يتوبوا وأن يتوب الله عليهم. أما أولئك المتبجحون الذين يحسبون أنهم متى أمسكوا عن الطعام والشراب فقد أدوا كل حقك ، وقاموا بكل واجبك ، على حين أنهم في صومهم لم يدعوا قول الزور ولا العمل به ، فهؤلاء هم الذين أساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وهؤلاء هيهات لهم أن يتوبوا ، لأنهم لا يظنون أنهم اقترفوا ذنباً .

أما دروا أن الله حين نهى الأبناء أن يوجهوا لآبائهم حرفاً من التأفف والتضجر، كان هذا منه ترقياً وتسامياً بهم في البعد عما وراء ذلك من ضروب الأذى والعداون ، وأنهم كذلك حين نهي الصائمين عن طيبات المشارب والمطاعم ، كان هذا ترقياً وتسامياً بهم في التطهر عما قبل ذلك من المحارم والمآثم ؟ وهل يعقل أن ينهي الصائم عن رد الإساءة والإيذاء ، وأن يبيح له البدء بالفحش والإيذاء ؟ أليس الصوم كما عرفنا هو أقصى الطهر وغايته؟ فكيف يؤدى نهايته من لم يؤد بدايته ؟ وكيف يحتسب عند الله نافلة البر ، من لم يؤد ركنه وفريضته ؟

أيها الأخوة الصائمون القائمون :

أفلا تجلسون معي قليلاً نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب. هل نسينا أن الميزان دقيق وأن الناقد بصير ؟ فماذا يكون جوابنا لو قيل لنا: لقد كنتم في صيامكم لاغين رافثين وكنتم في قيامكم ساهين لاهين . من منا إذاً لم يلغ ولم يرفث في صيامه ومن منا لم يله ولم يسه في قيامه ؟ كيف إذاً نتكل على أعمالنا وكيف نطمع إلا في رحمة ربنا ؟

(1) من حكم إبن عطاء الله السكندري . انظر : الجانب العاطفي في الإسلام لمحمد الغزالي وانظر (حكم ابن عطاء) ط الأهرام .

أيها الأخوة المؤمنون :

هل أدلكم على طهرة تنقون بها أعمالكم من أدرانها وتخلصونها من شوائبها؟

اغتنموا هذه اللحظات الباقية أمامكم ، فاغسلوا قلوبكم الآن بدموع الاستغفار، وارفعوا أكف الضراعة إلى الودود الغفار. قولوا معي : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[1] .

وطهرة أخرى أعظم وأقوم : أن تودعوا هذا الضيف الكريم بما يودع به الضيف الكريم ، إن الضيف الكريم لا يودع بمجرد التحيات والتسليمات ، ولكن يجهز بالتحف والطرف ويزود بالهدايا والعطايا . أتدرون ما تحفة ضيفكم ؟ زكاة فطركم . إنها طهرة صومكم ، وزكاة نفوسكم ، وصلاح أمركم .

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، ورزقنا وإياكم الصدق والإخلاص في كل حال .

آمين : آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان رقم ١٩٣، ١٩٤ .



فهرس